أيام فى الهند

١

كل شىء هنا يشعرك بكآبة الفقر ، بمخلفات الاستعمار . ولكنه يشعرك أيضاً بالذين يكافحون فى سبيل حياة أخرى . صالات الاستقبال فى المطار ضيقة والناس يتمددون مرهقين على دكك من الخشب . والكبار والأطفال ملابسهم تبدو عليها الحاجة والعوز . أو تجدها ممزقة كاشفة عن الجلد الأسمر تحتها . والروتين مستحكم فى إجراءات جواز السفر ، وتفتيش الحقائب ، وتسجيل العملة الأجنبية التى تحملها معك ولكنك لا تضيق بها لأنها تشعرك بالذين يجاهدون لحماية أنفسهم من أعداء أقوياء لا يرحمون . والتاكسى الذى ركبناه نحن الثلاثة من صنع الهند ، وإن كان اسمه الإنجليزى « إمباسادور » يحمل طعم الماضى ورائحته .

فى الهند منعت الحكومة استيراد السيارات من الخارج . وأصبحت تعتمد تماماً على الصناعة المحلية . ولذلك فالسيارات والتكسيات ليست فارعة الطول . ولا لامعة . ولا وجيهة . وإنما صغيرة عملية تحمل الناس إلى كل مكان لكى يواصلوا أعمالهم وقضاء حاجاتهم ، وتشعرك بزحف البساطة على الأبهة الموروثة من عهد المهراجات والإقطاع ، وبانتصارات العمال بالتدريج على المظاهر الجوفاء والكاذبة التى تستنزف الدخل ، ولا تطعم الأفواه .

استودعت رفيقى فى السفر عند باب الفندق . مبنى يشبه «قشلاقات» الجند . أبهاؤه مظلمة طويلة ، تحس أن البلاط الخشن تحت قدميك لا ينظف إلا نادراً . صعدت إلى حجرتى . الفراش الذى حمل عنى حقائبى رجل ذو وجه مدبب يرتدى عمامة « الشيخ » . كان يؤدى التحية العسكرية كلما تحدثت إليه ، وكأنه قضى جزءاً كبيراً من حياته فى

الهند : أنديرا غاندى

الجيش . وضع الحقائب فى أحد الأركان ثم وقف داخل الباب . يدور بعينيه الصغيرتين الذكيتين حول الجدران كأنه ينتظر أوامر أخرى . بحث فى جيوبى عن النكتة وأعطيته نصف روبية . فانصرف مؤدياً التحية العسكرية مرة أخرى .

الحجرة ضيقة بها سرير من خشب ومنضدة صغيرة ومقعد اتسخت مساند من كثرة الاستعمال . وإلى جوار الباب تسريحة قديمة ، ومرآة تجعل وجهك غير مألوف عندما تنظر إليه . من السقف تدلت مروحة ضخمة . وتحت النافذة المطلة على منور ضيق جهاز تكييف يئن بضجيج متصل . فى الحجرة باب داخلى يقود على اليسار إلى ملحق صغير انتصب فيه دولاب من الخشب وتسريحة أخرى ، وعلى اليمين إلى الحمام . تحت سخاناً كهربائياً ضخماً وعتيقاً يشبه الغلايات البخارية فأعددت نفسى ذهنياً لحمام لذيذ ينفض عنى إرهاق السفر ، وغبار الطريق من المطار .

بحثت عن عود ثقاب فلم أجده . رفعت سماعة التليفون وأدرت الرقم حسب التعليمات المكتوبة على ورقة صغيرة وضعت تحت زجاج الكومودينو المشروخ . دق الجرس برنين متصل دون أن يرد أحد . حاولت من جديد . بعد المحاولة الثالثة رد صوت ينطق كلمات إنجليزية غير مفهومة .

طلبت علبة ثقاب . فأغلق الخط بدون أن أدرك إن كان محدثى قد فهم شيئاً . انتظرت قرابة ربع ساعة ، ولكن أحداً لم يحضر . أدرت الرقم مرة أخرى بشىء من العصبية . رد على الصوت نفسه بالكلمات نفسها غير المفهومة . شرحت مطلبى فى نبرات ارتفعت حدتها . وضعت السماعة وانتظرت . بعد قليل فتح الباب بدون إنذار سابق لأجد أمامى شاباً قصير القامة تدلت شعوره الناعمة فوق وجهه الأسمر كأنه استيقظ من النوم منذ لحظات . كان يرتدى بدلة بيضاء متسخة وصندلا . مد يده

بعلبة الثقاب ثم وقف يدور بعينيه نصف المغلقتين على الجدران ، كالذى يبحث عن شىء تعود أن يراه وهو يعد موجوداً. نظرت إليه متسائلا فقال بكلمات إنجليزية التقطت معناها بصعوبة :

« عشرون بايسة » (الروبية تساوى مائة بايسة) .

« لماذا ؟ »

« ثمن علبة الكبريت » .

فوجئت بالإجابة فى كل الفنادق كانوا يضعون علبة من الثقاب بجوار السرير . أعطيته المبلغ فتناوله من يدى ثم وقف ينتظر وهو يحملق فى وجهى بنظرة بلهاء . أحسست برغبة شديدة فى أن أضربه : ولكنى تمالكت نفسى وقلت :

« ماذا تنتظر؟ »

تلكأ قليلا ثم قال :

« أتريد شيئاً آخر ؟ »

« لا وشكراً » .

خرج وأغلق الباب وراءه بشىء من العنف . وضعت المفتاح الطويل العتيق فى الثقب . بعد عدة محاولات انزلق اللسان مع المفتاح . تذكرت الإعلان المكتوب على نافذة الحجرة فى فندق « أكوانوريال » الفاخرة « لا تفتح النافذة . فى أثناء النوم حفظاً على حياتك » . كنت قد لاحظته ساعة وصولى . ولما سألت الفراش الصينى المبتسم الذى حمل حقائبى عن دواعى هذا الاحتياط هز كتفيه وقال : « العصابات فى سنغافورة كثيرة وخطرة » .

توجهت إلى الحمام وحاولت تشغيل السخان الكهربائى بدون جدوى. خلعت ملابسى وتركت المياه الباردة ترطب حرارة الجو الخانق الذى

شعرت به منذ لحظة النزول من الطائرة . ارتديت ملابس النوم وأسقطت نفسي على السرير .

إلى جواري كان صوت جهاز التكييف يرتفع في ضجيج متصل . بعد قليل شعرت برائحة نفاذة تتسرب إلى أنفي من مكان ما في الحجرة . رائحة أحسست أنني أعرفها جيداً . شيء يشبه فضلات القطط والثعبان .

هكذا قضيت أول ليلة في نيودلهي . أستنشق روائح الماضي البعيد والقريب في آن واحد . وأنا أمد جسدي المتعب فوق السرير الخشبي في الحجرة رقم ٣٦٩ بفندق « جان بات » .

* * *

كانت ساعة الفندق تشير إلى السادسة والنصف . خرجت من الباب الرئيسي إلى الشارع . كنت قد قررت أن أمشي حتى المكتب المنادي لهيئة العمل الدولية في سردار باتيل مارج (وكلمة مارج هذه تعني شارع) لم أكن بعد قد أدركت أن مدينة نيودلهي الجديدة مبنية على مساحات شاسعة . فالشوارع عريضة تمتد مسافات طويلة : تتخللها الحدائق الكبيرة ، والخضرة ، والأشجار في كل مكان . البيوت أغلبها منخفضة مبنية من طابق أو طابقين لونها أبيض أو أحمر . وهذه الألوان المميزة بالإضافة إلى ضخامة البناء المعماري ، وعلو الأسقف ، وكبر حجم الحجر ، والأشجار العالية تعطي المدينة طابعاً خاصاً ورثته من أيام الإنجليز .

في هذه الساعة المبكرة من الصباح كانت الشوارع خالية تقريباً من المارة ما عدا قليلا من الناس يذهبون إلى عملهم فوق الدراجات . فالدراجات في بلاد آسيا وسيلة شائعة للانتقال . أمام فندق « إمبريال » تحت عدداً كبيراً من سيارات الأجرة لونها أصفر ، وصفوفاً من الأسرة

مصنوعة من الجريد مرصوصة فوق الرصيف العريض ، وعلى الأسرة أجساد نائمة بدون غطاء . أو ملفوفة فى رداء يشبه الرمل من الصوف الخشن المصبوغ بلون داكن أو أسود . ورجالا يجلسون فى مجموعات صغيرة يتحدثون . أو يمشطون شعورهم الطويلة كالحرير الأسود . ويلفونها فى كومة عالية تحت العمامة . أو يقومون ليغتسلوا تحت المياه المتدفقة من صنبور كبير أقيم تحت كشك خشبى نصف مفتوح .

هؤلاء هم سائقو التاكسى . كلهم من « السيخ » . والسيخ قبائل محاربة عرفت بشجاعتها وقدرتها على التحمل . إنهم أتراك الهند . تجدهم منتشرين فى كل مكان يقومون بالأعمال الشاقة ، ويعملون فى الفنادق حراساً ، وسائقين لسيارات النقل والأجرة ، وفى البريد والسكك الحديدية والأعمال التجارية . وهم جميعاً ذوو لحى سوداء يرتدون عمامة بيضاء أو سوداء أو حمراء مثبتة تحت ذقونهم بحزام من المطاط أو القماش ولا يقصون شعورهم أبداً بل يتركونها تنمو ويلفونها تحت العمامة . وسائقو التاكسى ينامون هكذا فى العراء تحت السماء : فوق أسرة من الجريد يتركونها فى أماكن محددة فى أثناء النهار ليعودوا إليها عند انتهاء العمل . رجال أشداء تحس فيهم الجد ، والهدوء والطيبة .

والجو الحار الرطب فى الهند يسهل قضاء الليل فى العراء . والفقر يدفع الناس إلى افتراش الأرض تحت السماء . والهند بلد الملايين الذين ينامون فى شوارع المدينة وميادينها وحدائقها وفى الحقول الممتدة آلاف الكيلومترات يهربون منها فقط عندما تنهمر الأمطار فى سيول لا تنقطع .

سرت عبر الشارع المسمى « جان بات مارج » متجهاً إلى « كونوت بلايس » (أى ميدان كونوت) . وكثير من الشوارع والأماكن ما زالت تحتفظ بأسمائها الإنجليزية . وجدت نفسى أحملق فى ميدان ضخم تكاد العين لا ترى حدوده ، تتوسطه حديقة تمتد مساحات شاسعة والميدان بيضاوى الشكل ترتفع منه النافورات العالية . وفى الليل

تضاء بالمصابيح والكشافات الملونة فينطلق الرذاذ فى أقواس تشق ظلام الليل كسيمفونية من الألوان الرقيقة. كاللوحة المرسومة بأصابع « الباستيل ». وحول الميدان العملاق شارعان متوازيان . حلقة داخلية وأخرى خارجية . وإذا أردت أن تسير المسافة حول الميدان على الأقدام فلا أقل من ثلاثة أرباع ساعة بالخطوة السريعة .

ولكن فى ذلك الصباح عندما وجدت نفسى أصب من الشارع داخل الميدان فوجئت بالحديقة الخضراء مغطاة بمئات من الأجسام . رجال ما زالوا ينامون ووجوههم للسماء وآخرون لفوا حول أجسامهم نصف دائرة كالجنين فى بطن أمه كأنهم يحاولون حماية أنفسهم من أحلام مزعجة . ورجال يجلسون القرفصاء نصف عرايا ، وقد أطلقوا شعورهم ولحاهم السوداء أو البيضاء . ترى عظامهم البارزة تحت الجلد . وصدورهم كالأقفاص المتآكلة . والخطوط السوداء المحفورة حول العيون . والسكون بل الجمود يسيطر على حركاتهم . والنظرات تبدو وكأنها موجهة إلى الداخل لا إلى ما يدور حولهم . وكأن لا شىء مما يحدث يهمهم .

ورجال ونساء تدرك أنهم ليسوا من الهنود ، يرتدون الأسمال البالية . وتبدو على جلودهم البيضاء تلك القذارة المتراكمة من إهمال النظافة . أظافرهم طويلة تراكم تحتها التراب الأسود ، وشعورهم الشقراء طويلة شعثاء . ينامون ملتصقين بدون غطاء ، وقد أسندوا رءوسهم إلى أكياس من التيل يحملون فيها ممتلكاتهم وملابسهم القليلة ، أو يجلسون فى حلقات يتحدثون ، ويدخنون . أو يحملقون فى السماء بعيون ضائعة ، أو يخلعون سراتهم أو قمصانهم ليبحثوا فى ثناياها عن القمل ، يقتلونه بعناية بين أظافر الأصابع . وقد كشفوا أجسادهم البيضاء تلفت النظر بين الأجسام السمراء المستلقية فى سكون فوق أرض الحديقة . فالهند ملتقى « للهيبيز » من كل أنحاء العالم . فالحياة هنا لا تكلف كثيراً . وافتراش العراء يحل محل السكن . . .

رأيت رجلاً عجوزاً يتطلع إلىّ بنظرة جامدة . عظامه بارزة تبدو وكأنها ستشق جلده المتيبس الذى يكسوها بغطاء رمادى مريض . أسرعت الخطى . . . أدركت أنى أهرب من رؤية الفقر .

الفيضان البشرى

عشرات من الموائد والمقاعد المتلاصقة لا تكاد تستطيع أن تمر بينها . ومئات من الناس يجلسون حولها . يقرءون صحف الصباح . ويحتسون القهوة الساخنة وقد تركوا أحذيتهم عند الباب وارتدوا خفاً من المطاط الأسود . وعند المدخل أربعة من الرجال . . . هياكل من العظم والجلد يمسحون الأحذية بحركات سريعة مدربة . والناس الذين يغادرون القهوة يمرون أمامهم فى صف طويل . ويعيدون إليهم الخف الأسود . ويرتدون أحذيتهم مستندين أجسامهم على قدم واحدة وعلى يد يضعونها فوق درابزين من الخشب المتآكل . يكاد يقع تحت ضغط الأجسام المستندة إليه ؛ ويدسون قطعة من النقود مصنوعة من الألومنيوم تساوى ربع روبية فى الأيدى الناحلة الممدودة . والأصوات ترتفع فى ضجيج متصل كأنك فى سوق كبيرة ؛ والقهوة التى تشتريها سائل ساخن أسود لا طعم له ولا رائحة ولكنها رخيصة تملأ الجوف الخالى من الطعام ، وتعطى شعوراً كاذباً بالطاقة. وبين حشد الجنود بوجوههم السمراء جماعات صغيرة من « الهيبيز » تطل عيونهم بنظرات متأملة جامدة كأنهم يعيشون فى حلم بعيد . بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء . غرباء عما يحيط بهم . ومع ذلك تحس أنهم جزء منه . وأن الحشود التى اندسوا بينها تعودت وجود هؤلاء الراحلين من البلاد البعيدة . الهاربين من المدن الصناعية بمداخنها وآلاتها التى تدور لتسحق الإنسان . الباحثين عن لحظة تأمل فى الحياة ، الزاهدين عن الطعام الجيد والملابس الناعمة . الغارقين فى ضياع المخدر ، أو فى نوع من الانفصال الذهنى . يكاد أحياناً يقترب من التصوف . « الهيبيز » هنا لا يشعرون بالغربة .

فالبطون الخاوية . والأسمال ممزقة . والأجساد هزيلة . وقذرة وتحمل أشياء معتادة . وهؤلاء القوم يرفضون كل نعم حياة حديثة . ويبحثون عن كل ما يتناقض معها . ويجدون في الهند تجسيداً لما يسعون إليه . إنهم يتحدثون أحياناً مع الهنود الذين يختلطون بهم في المقاهي والشوارع والحدائق العامة . والهنود يتقبلونهم ويعاملونهم بعطف ولكنك تحس بنوع من الجدار البارد يرتفع بين الاثنين . نوع من الاستنكار الصامت . أو عدم الاطمئنان . أو الريبة . وكأن الذين فرض عليهم الفقر يرتابون في أمر الذين يبحثون عنه . ويشكون في صدق ما يدعون أو ربما لأن « الرجال ذوى العيون الزرقاء » كانوا دائماً أصحاب أغراض . غزاة . لصوصاً . قراصنة . قساوسة . رجال أعمال . رجال دولة كلماتهم معسولة وأنيابهم مسنونة . فلماذا لا تكون دعوة هؤلاء صورة جديدة من صور التضليل ؟

والمأكولات هنا بسيطة . قطع من عجين الدقيق أضيفت إليها الشطة . وأعشاب خضراء محمرة في الزيت مثل الطعمية . أو خبز وعسل أسود : أو عجين البطاطس باللحمة المفرومة مقلياً في الزيت : أو نوع من البقول مثل الفول . ولكن حباته صغيرة مطبوخ في صلصة بنية اللون حراقة المذاق يسمونه « دال » وخبز رفيع عادى أو مقلى في الزيت يطلق عليه « نان » . أما الأطباق الممتازة فهى لا تخرج عن أنواع من البيض أو كفتة السمك .

ومع ذلك فإن أبسط أنواع الأطعمة في الهند تتميز بطعمها اللذيذ . فهم يستخدمون التوابل والبهارات بكميات كبيرة وبحنكة شديدة . ويبدو أن بساطة الطعام وقلة أصنافه في البلاد الفقيرة دفعت الناس إلى ابتكار الوسائل التى تغير من طعمه ، وتدخل عليه شيئاً من التنوع حتى يصبح مقبولا .

جلست إلى أحد الموائد . بعد قليل احتل ثلاثة من الرجال المقاعد الباقية حول المائدة . كانوا يقرءون الصحف . ويتحدثون فيما بينهم حديثاً

طويلا متصلا لا ينقطع لحظة . وكأنهم لم يلتقوا منذ فترة طويلة .

عرفت منهم أنهم ثلاثة تجار يعملون فى بيع الأحذية والجلود . ودار الحديث بيننا حول الأسعار . والغلاء . فى تلك الفترة كانت الهند تعانى من الجفاف . لقد طال انتظار الأمطار التى تأتى عادة مع أوائل الصيف ، وجفت المحاصيل فى الحقول . فشحت المواد الغذائية وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً . ذلك أن ٦٠٪ من أراضى الهند ما زالت تعتمد فى زراعتها على الأمطار . وامتلأت أعمدة الصحف بالنقد الشديد الموجه لحكومة أنديرا غاندى . فاليمين يتهم سياسة التأميم بأنها السبب فى المصاعب الاقتصادية واليسار يوجه سهامه لتجار الجملة والمضاربين وضعف الحكومة فى مواجهة ألاعيب المحتكرين . والمواد الضرورية تشح أو تختفى الواحدة بعد الأخرى . بل حتى « الفكة » توارت طوال الأسبوعين اللذين قضيتهما فى نيودلهى .

سألت الرجال الجالسين حول المائدة عن رأيهم فى الموقف . فعبروا عن مخاوفهم وعن إحساسهم بالتشاؤم إزاء الأوضاع . حدثونى طويلا عن سيطرة المحتكرين على الأسواق ، واختناق صغار التجار ومتوسطيهم ، وعن الغلاء الفاحش . والاحتمالات المترتبة على عدم هطول الأمطار ، بل استفسر أحدهم عن فرص العمل فى مصر .

الهند تبحث عن نفسها !

خلال الأيام القليلة التى قضيتها فى الهند أحسست أن البلاد كالمرجل تغلى مياهه فوق نار موقدة يرتفع لهيبها يوماً بعد يوم . كنت أستيقظ لأقرأ عدداً من الصحف قبل أن يبدأ يوم العمل . وقراءة الصحف فى الهند متعة حقيقية . الصحف بسيطة خالية مما يسميه الصحفيون المحترفون « بالفن الصحفى » ثمانية صفحات مطبوعة فى أعمدة بالبنط الصغير على ورق

الهند : فلاحون فى الحقل ويعملون شبه عرايا

يميل إلى الصفرة وكأنه رقد فى خزائن سنين طويلة . ومع ذلك فكل تيارات المجتمع وأحزابه وفئاته تعبر عن نفسها ، وتموج الصدور بصراع الأفكار والمصالح .

وأينما ذهبت كنت أسمع المناقشات الحارة التى تدور حول مستقبل البلاد والآراء متباينة بل أحياناً متناقضة . فالهند بلد القوميات المتعددة واللغات المختلفة . والطبقات والفئات تفصل بينها فروق شاسعة فى المستوى الاجتماعى وفى الطابع الثقافى . والمشاكل ضخمة . فى حجم البلاد وفى حجم السكان . الذى يقترب سريعاً من ستمائة مليون . وفى حجم الفقر يطحن الملايين إلى درجة المجاعة .

هناك « المهراجات » وبقايا الإقطاع الذين يتحولون بسرعة إلى الأعمال التجارية والصناعية ويجعلون من قصورهم فنادق للسياح وأغنياء العالم . وهناك الرأسماليون أصحاب الملايين مثل « تاتا » و « برلا » الذين أقاموا المصانع الضخمة . وشنوا الحملات على أنديرا غاندى لأنها أممت البنوك . وشركات التأمين . وتجهت إلى التعاون مع الاتحاد السوفيتى . وهناك بعض رجال الجامعة . والفنيون . والمهنيون . والمثقفون الذين ما زالوا يقلدون الإنجليز فى حياتهم يتحدثون الإنجليزية من أنوفهم . ويتحركون ببطء مدروس ، ويهزون أكتافهم وأيديهم فى استعلاء ويرنون بنظراتهم وأفكارهم ناحية الغرب وأمريكا بالذات . ولكن هناك مثقفون ومهنيون . ورجال فكر آخرون يبحثون عن شخصية الهند فى تراثها . وتاريخها . وإنسانيتها العميقة ، وتلك القدرة الفريدة على تأمل الحياة ومعناها . على البحث عن المنابع . والوصول إلى الأهداف . هؤلاء يؤمنون بالهند ، وبضرورة الاعتماد على القوة العظيمة الكامنة فيها .
وأتذكر عالم الاجتماع الأمريكى الذى قابلته فى مكتبه الفاخر المزود بكل أدوات العصر الحديث وإمكانياته تطل نوافذه العريضة على حدائق

الهند : فى شوارع دلهى القديمة الزحام « والسارى »

الهندى الشهيرة . والذى قال عبارة : الهند استيقظت والبعث القومى ينهض فى كل مكان . إنهم يقولون لنا . لم نعد نريد أن نعتمد عليكم . إن مستقبل الهند مرهون بتنمية مواردها الداخلية . مرهون بجهود الشعب الهندى . ثم أضاف : « لم أعد أشعر بالتفاؤل الذى أحسست به عندما وضعت قدماى أرض هذه البلاد لأول مرة منذ سبع سنوات » .

وهذا البعث القومى تشهده فى كل مكان . فى مداخن المصانع التى تصنع الحديد والصلب . والقاطرات والسيارات . والملابس . وفى الاهتمام المدروس لتشجيع الصناعات الحرفية المتنوعة التى تشتهر بها الولايات المختلفة .

آلاف الأشياء تكتظ بها الأسواق . والحوانيت الصغيرة . والمتاجر الخاصة والحكومية التى تبيع للسياح ولأغنياء القوم أقمشة صوف وحرير . وملابس . وفخار . وتحف . وجواهر . ومفروشات وموبيليات وأدوات مصنوعة من الجلد . وأوان مختلفة . أو أطباق أو فناجين مصنوعة من الفخار . كلها تخطف العين بفنها الرفيع . وألوانها الجميلة . وتلك الدقة التى تنم عن اعتزاز اليد الصانعة بما تصنع .

ونشهده أيضاً فى التمسك بالزى الوطنى . القميص والسروال الأبيض للرجال . و « السارى » للسيدات ذلك « السارى » الذى يحول كتل البشر إلى نسيج من الألوان تمتع العين . وفى المحاولات التى تبذل لإحياء اللغات الكثيرة التى تتميز بها الهند فكيف يمكن أن يتحقق البعث القومى إذا كانت الإنجليزية هى اللغة الوحيدة المشتركة التى تستعمل فى الصحف ، والكتب وكل مراحل التعليم ، وفى جميع الأعمال الرسمية الحكومية وغير الحكومية .

وتحسه عندما تدخل البيوت الهندية . فى المفروشات . والستائر . والمقاعد . والسجاجيد . وفى الأكل الذى يتكون من عشرات الأطباق

الهند : رسم الفخار ويعد إحدى الصناعات الجميلة التى تجيدها الهنديات

الهندية . والأطعمة المتنوعة بقدر تنوع الولايات . فيوجد مثلاً أكثر من مائة صنف من الخبز . وكل خمسة أو ستة من هذه الأصناف ترتبط بولاية من الولايات . أو منطقة من المناطق .

وهذا التمسك بالشخصية المتميزة يتجلى بوضوح شديد في العناية التي تحاط بها آثار الماضي ومدافن الزعماء . وأغلب الآثار من عهد المغول الذين حكموا الهند منذ سبعمائة سنة تقريباً . والمغول كانوا مسلمين . قبائل رحالة شديدة البأس في الحروب استقروا في الهند وحكموها مرحلة امتدت ثلثمائة سنة وكما هو شأن المسلمين عادة اهتموا بالعمار . أقاموا المدن المحصنة . والجوامع والقلاع ترتفع شامخة مهيبة في كثير من أنحاء الهند . ومن بينها جامع « قوة الإسلام » و « الصدر الأعظم » . والقلعة الحمراء في دلهي القديمة . والتاج محل في مدينة أجرا على بعد ٤٠٠ كيلومتر تقريباً من نيودلهي .

وأغلب هذه الآثار مصنوعة من أحجار رملية حمراء اللون تحيط بها حدائق خضراء منسقة بعناية . وأحواض من الزهور . والأشجار العملاقة . النظافة منقطعة النظير . والاهتمام بها يتميز بطابعه الشعبي . فإذا ألقى أحد الأشخاص قطعة من الورق على الأرض أو عقب سيجارة اندفع أحد من المارة ليلتقطه من الأرض ويضعه في سلة من سلال المهملات الكثيرة الموزعة في هذه الأماكن . وتحس وأنت تسير مع السائرين بنوع من الحب والاعتزاز يحمله أبسط الناس وأفقرهم لهذه الآثار الإسلامية برغم أن أغلبية السكان ليسوا من المسلمين .

وفي مدينة دلهي القديمة ذهبت في إحدى الأمسيات لزيارة مدافن غاندي ونهرو . الشمس تسقط في الأفق تصبغ السحب الكثيفة بألوان رقيقة . نسيج من الخيوط البنفسجية والحمراء وتحتها ترقد التلال ساكنة خضراء تمتد حتى النهر إلى آخر حدود الرؤية . والناس يجلسون على الحشيش الأخضر الرجال . والنساء . والشيوخ والشباب . والأطفال

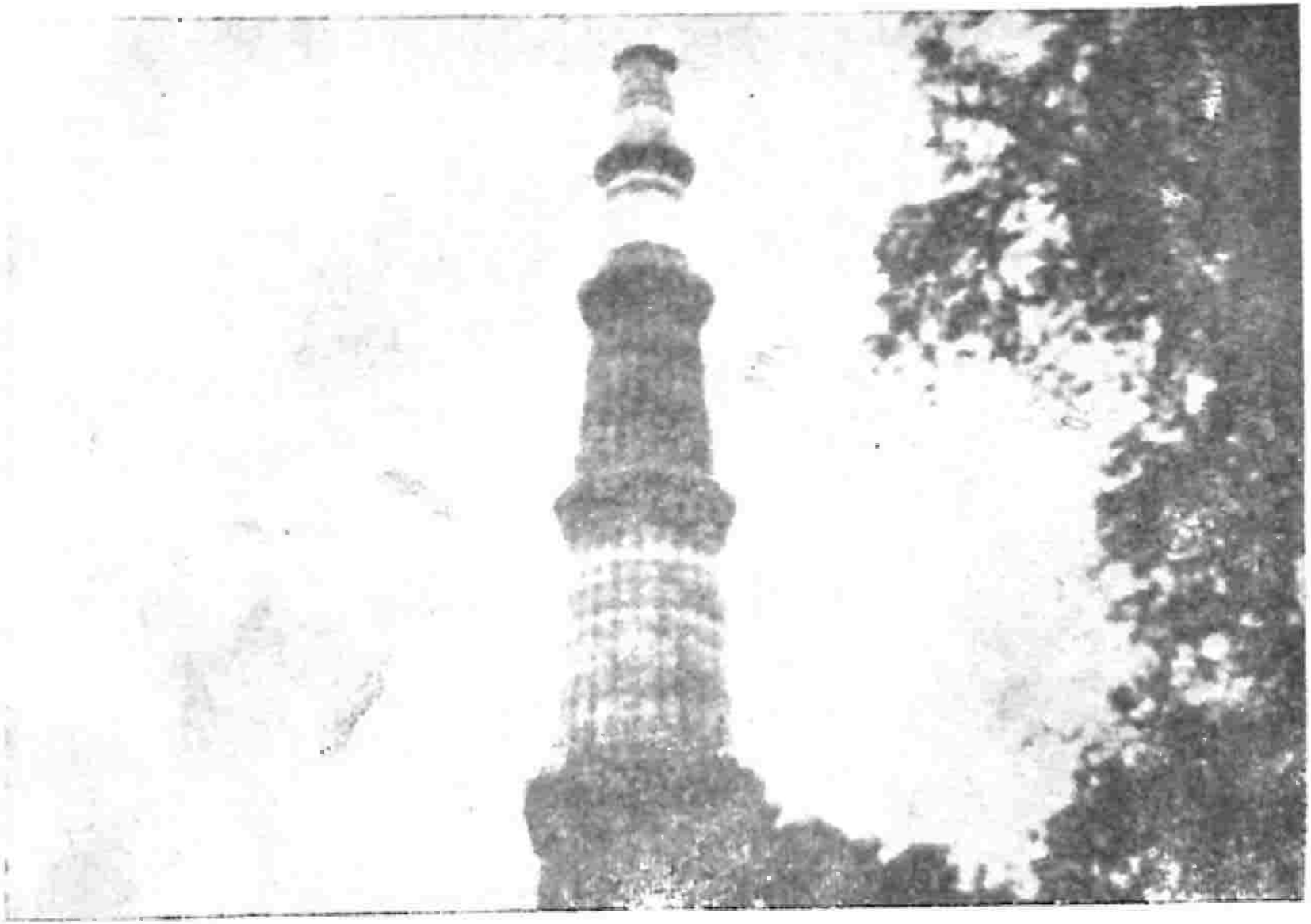

دلهى القديمة: منذنة جامع « قوة الإسلام » ويبلغ ارتفاعها ٧٥ متراً

يتحدثون بأصوات هامسة . لا أحد يجرى - ولا صوت يرتفع فى ضجيج ؛ ولا طفل يعبث بأحواض الزهور المتناثرة فوق التلال المنحدرة . وجماعات صغيرة من الرجال فى ملابسهم الأبيض ؛ وعلى الرؤوس الطواقى البيض ؛ وحول الوجه اللحى التى وخطها الشيب ؛ وفى اليد عصاً يتكئ عليها الرجل وهو يسير . وأمام الحديقة حوش عريض غطته الرمال الحمراء وبجوار الباب الخشبى المفضى إلى الحديقة إعلان : ممنوع التدخين ، والناس يطفئون سجائرهم قبل الدخول أو ينتظرون فى الخارج حتى ينتهوا منها ؛ وعلى أرض الحوش لا تلمح قطعة ورق ، أو كيساً فارغاً أو قشور الفواكه ؛ وحتى طرف سيجارة دفن تحت الحذاء . وعند طرف الحوش دورة مياه تلمع أحواضها وصنابيرها من كثرة التنظيف ؛ وإلى جوار الباب حنفيات تصل إليها المياه من أوان فخارية ضخمة عبر مواسير من المطاط الأسود . فإذا شربت منها تشعر أنك لم تذق مياهاً منعشة كتلك التى تتدفق من فتحة الصنبور : تذكرك بشلالات الثلج المذاب التى تسقط من قمم الجبال فى أوربا .

وعندما تسير فوق الممر الطويل ينتظرك أحد الحراس عند مدخل الضريح يحرس صفوف الأحذية التى تركها أصحابها عند الدخول ؛ وتخلع حذاءك بدورك وتسير حافى القدمين فوق ألواح من الخشب وضعت على الأرض لتلقى أقدام السائرين .

الهدوء هنا شامل ؛ هدوء عميق تكاد تسمعه ، والأشجار تهتز برفق مع نسمات الريح . والضريح مربع كبير من الرخام : مساحة بنية اللون فيها دوائر سوداء صغيرة . وفوق الضريح آنيتان من النحاس اللامع وضع فيهما رماد الجسد المحروق . فالهنود يحرقون الجثة بعد الموت ، ويضعون الرماد فى آنية صغيرة .

لمحت رجلاً طويل القامة . أسمر الوجه يدخل إلى الضريح . دار حوله ببطء مرتين . ثم وقف ووضع زهرتين صغيرتين فى لون البرتقال ؛ وانحنى

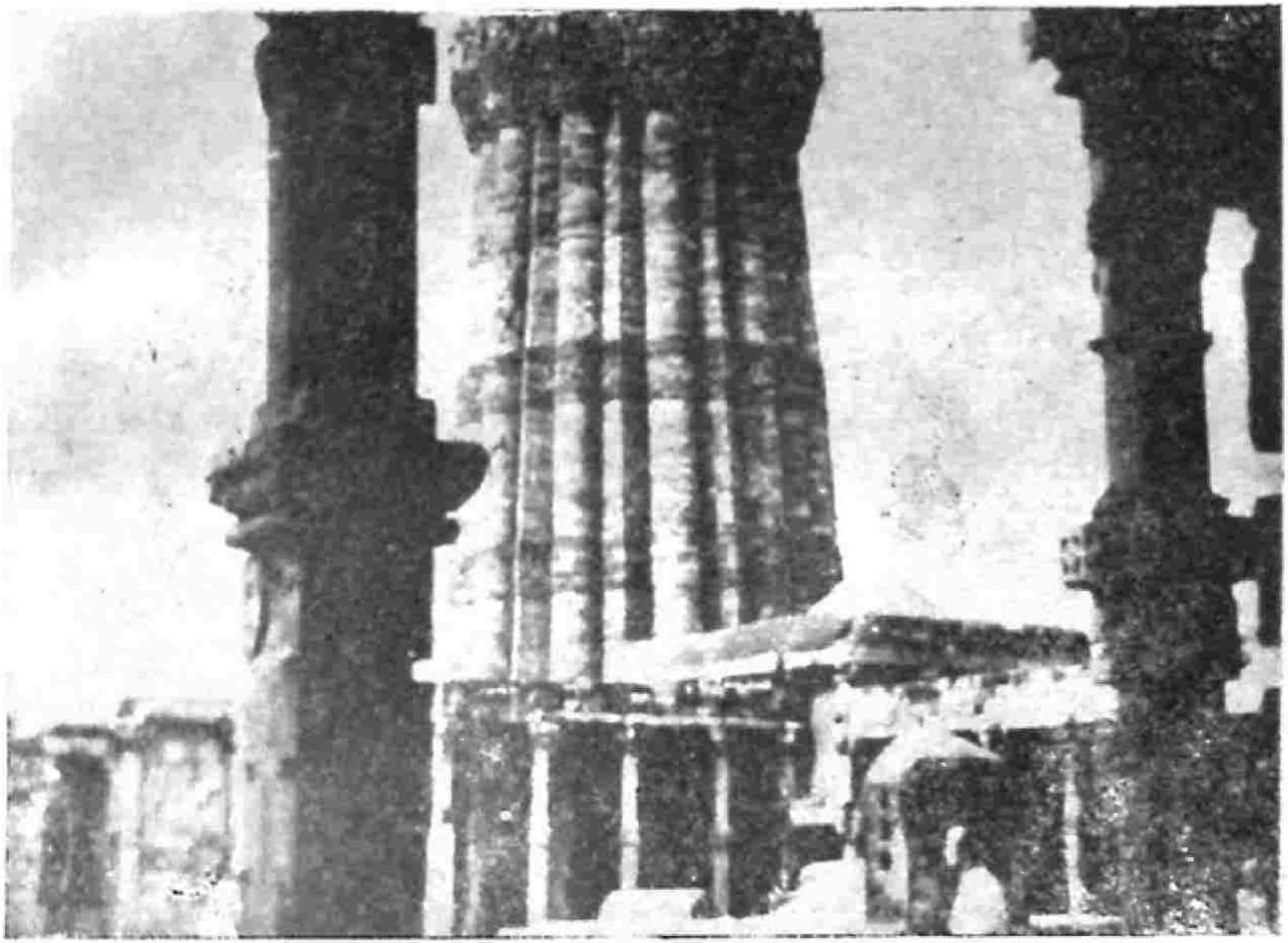

دلهى القديمة : قاعدة المئذنة فى جامع قوة الإسلام من الحجر الأحمر

على يمين ووحدة على اليسار . بقى هكذا ساكناً أمام ضريح يتضرع إليه بدون أن يتحرك . النيل يزحف ببطء على مكان وسكون لا يقطعه سوى حفيف الشجر . والرجل كالشبح الأبيض يتأمل . . . ويفكر .

أحسست وأنا أقف على بضع خطوات منه أنى أشهد سراً من أسرار الهند .

جولة فى مجتمع نيودلهى !

المبانى الحكومية فى الهند تذكرنى « بقشلاقات » الجنود الإنجليز التى كانت مقامة فى ميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير) مبان ضخمة صفراء أو حمراء اللون مكونة من مئات الأحجار كلها فى حجم واحد ، تمتد صفوفاً طويلة أو طابقاً فوق طابق . بل لا أعرف لماذا تذكرنى كثير من الأشياء فى الهند بأيام الإنجليز فقد تركوا بصماتهم فى كل مكان .

توقفت السيارة الفولكس الصغيرة التى خصصتها وزارة الصحة لتنقلاتى أمام مجمع كبير من المبانى . دخلت صالة الاستقبال الضيقة ووقفت أمام مكتب الاستعلامات . استقبلتنى السيدة السمراء الجالسة خلف المكتب بابتسامة مرهقة . أعطيتها اسمى ، فقالت : « إنهم فى انتظارك فى إدارة تنظيم الأسرة فى الدور العاشر » . هممت بالانصراف عندما لمحت آلة التصوير فى يدى ، وقالت « ممنوع حمل آلات التصوير فى أثناء التجول فى المبانى الحكومية » . سلمتها الكاميرا فوضعتها فى درج مكتبها . بقايا القيود العتيقة التى لا معنى لها . صعدت إلى الدور العاشر ، ثم سرت عبر « الطرقة » الطويلة ببلاطها الرمادى المتسخ وصفوف الحجر . تلمح من خلال أبوابها أكواماً من الملفات القديمة مرصوصة فوق المكاتب والمناضد ، والمقاعد ، و « الدواليب » وحتى الأرض . وعشرات من الناس يسيرون بخطوات متسكعة كأن الوقت أمامهم طويل . وبين الحين والحين دورة مياه تحولت جدرانها وأحواضها البيضاء إلى لون التراب

الهند : رجل يقضي لحظات تأمل أمام ضريح غاندي

من قمة التنظيف وتصاعدت منها رائحة نبول. الحجر مكدسة بالمكاتب والموظفين. وتحس في كل ما يحدث بقدر كبير من الفوضى.

وصلت أخيراً إلى باب حجرة رقم ٣٧١. طرقته طرقتين متتاليتين ثم دخلت. وجدت سيدة سمراء قوية الملامح ترتدى الساري الأزرق. ونظارة سميكة قلت: صباح الخير... أنا الدكتور شريف حتاتة..

لمعت أسنانها البيضاء في ابتسامة خاطفة ثم عاد الجد إلى وجهها الصارم وقالت: «اتشا» أنا الدكتورة «راو». كنت في انتظارك. فأنا المكلفة بعمل الترتيبات اللازمة لزيارتك... تفضل».

هكذا كان لقائي الأول مع الدكتورة «راو». ذلك اللقاء الذى قادني إلى عشرة أيام من التنقل المستمر ومن اللقاءات المتتالية التي عرفت من خلالها الكثير لا عن مشروع تنظيم الأسرة فحسب ولكن عن الناس، والمجتمع في نيودلهي.

* * *

زحفت السيارة الصغيرة ببطء تحت سيول المطر المنهمر وهى تشق طريقها وسط الأضواء على سطح الشوارع المبتلة متجهة إلى مستعمرة «كيلاش» إحدى ضواحي نيودلهي المترامية.

دخلت من باب الفيلا البسيطة ذات الطابق الواحد. صديقي الطبيب الذي عرفته في مصر خبيراً لتنظيم الأسرة كان في انتظاري هو وزوجته وابنه، وزوجة ابنه. استقبلوني بحرارة وود. فأحسست بعد قليل ببقايا الكلفة تتبخر. لم يكن أحد من المدعوين الآخرين قد وصل بعد فجلسنا نتحدث في انتظار قدومهم. كان جرس الباب يدق بين الحين والحين لتسمع كلمات الترحيب. ازدحمت الحجرة بالضيوف يتحركون ويتحدثون بألفة هادئة. والناس يتعرفون ببساطة شديدة تحس فيهم بالمثقفين الذين يعيشون في قلب الحياة: يعملون ويفكرون.

الهند : (نيودلهى) الدكتورة راو التى تعمل وترعى أطفالها . إنها نموذج امرأة الهند الحديثة

الأيدى العاجزة عن البناء!

جلس بى جوارى ناظر المدرسة . رجل قصير القامة بشرته بيضاء برغم صبغة الهندى .

هنا فى الهند التعليم لم يتغير كثيراً . ما زلنا نطبق فى الجوهر ما ورثناه عن الإنجليز .

فالتعليم منفصل عن الحياة إلى درجة كبيرة . مبنى على تحصيل كميات من المعلومات فى أغلب الحالات لا تفيد فى أداء العمل الذى سيقوم به الخريج عندما ينضم إلى القوى العاملة فى المجتمع . إننا لم ندرك بعد أهمية التعليم الوظيفى الذى يعد الإنسان لأداء وظيفة معينة فيما بعد . فالفلاح ينبغى أن يعد للزراعة وأن يحصل على بعض المعلومات عن الحساب كى يستطيع أن يتابع حساباته مع الجمعية التعاونية أو التاجر أو المالك ؛ وعلى خبرة فى إصلاح بعض الأدوات الميكانيكية أو الكهربائية التى قد يستخدمها ؛ وعن التغذية والصحة حتى يحافظ على صحة نفسه وأسرته ويتفادى العادات والتصرفات التى تعرضه للأمراض الشائعة ؛ وعلى كيفية تنمية الثروة الحيوانية الخاصة به . وعن الصناعات الحرفية المرتبطة ببيئته . وما ينطبق على ابن الفلاح أو بنته ينطبق على الفئات الأخرى .

والتعليم الثانوى لا بد أن يفقد صبغة النظرية التى تعد الطلبة للدخول فى الدراسات الجامعية الأكاديمية . فالكل هنا يريدون الوصول إلى الجامعة . ثم عندما يتخرجون تجدهم يعملون فى وظائف أو أعمال لا يرضون عنها . فى أعمال كتابية أو حسابية مثلا . أتتصور أن عندنا فائضاً فى المهندسين خريجى الجامعة ، إنه فائض لا عمل له ؟ وبينما يسعى المجتمع إلى التنمية . إلى بناء الصناعة . وإدخال الآلات فى الزراعة ؛ وإقامة المشروعات المختلفة ينقصنا آلاف من الرجال والنساء

الفنيين والإداريين الذين يمكنهم القيام بالأعمال التنفيذية والإشرافية اللازمة . ثم أنماط التعليم الموروثة عن الإنجليز تجعل من الإنسان مجرد حافظ للأشياء وأداة طيعة تفتقد روح الإقدام والابتكار . لا بد أن تخفف المناهج وأن تبنى نظم الامتحانات على اختبار قدرة التلميذ أو الطالب على التفكير . وهذا لا يتأتى إلا بإعطاء وقت وفرص للتفكير والقراءة . والمناقشة . والاهتمام بدراسة البلد ومشاكله . وتشجيع الفكر والمواهب الخاصة .

كان الرجل العجوز يتكلم بحماسة الشباب . تلمع عيناه الصغيرتان من خلف النظارة بذكاء وحيوية وتقطر كلماته بالأسى عندما يتحدث عن مشاكل الشباب وأزماته : « إذا كان الشباب فى أزمة يبحث عن مخرج ثم لا يجده . فينتهز أول فرصة للسفر إلى بلد آخر . فنحن مسئولون عن هذا إلى حد كبير لأننا لم نستطع أن نعطيه المثل . ولا الثقة فى المستقبل ولا الإحساس بأننا نسعى بجدية لمواجهة المشاكل وتغيير المجتمع » .

التفت إلى الفتاة التى كانت تجلس إلى جوارنا وتتبع المناقشة باهتمام واضح ، قوام طويل رشيق مألوف فى السارى الأبيض ، ينسدل فوق ظهرها الشعر الأسود حتى الخصر . وتقاطيع منحوتة بوضوح فيها جمال وقوة ، وعينان واسعتان فى سواد الفحم يحيط بهما بياض ناصع . لمعت أسنانها البيضاء فى الوجه الأسمر قلت :

« أين تعملين ؟ »

« أنا طالبة فى السنة الثانية لكلية الطب » .

« ما رأيك فيما قاله صديقنا ؟ »

« أوافقه تماماً . المظاهر نفسها فى كليات الطب . الهند تكتسحها الأمراض وسوء التغذية ومشاكل البيئة غير الصحية التى تنشر الأمراض ومع ذلك نتعلم وفقاً لنظم الغرب ، ولا يوجد اهتمام جدى بالوقاية وصحة البيئة وإعداد الطبيب لمواجهة مشاكل المجتمع الحقيقية . وعندما قلت لزملائى إننى سأقف جهودى للطب الوقائى سخروا منى وقالوا : أنت هاوية فقر » .

الهند (نيودلهى) : المتحف القومى . تمثال المرأة والجرار عند المدخل . الخطوط الخصبة والوجه المتأمل

رأيت تقاطيعها تحت نفسها فى خطوط من الإصرار كالمثال الجميل فى الضوء الخافت للحجرة . استطردت بعد حظة من السكوت المتأمل .

« المهنة الطبية عندنا ترنو بعينيها نحو البلاد المتقدمة فى الغرب ونحو الثراء . وهذا بتأثير كبار الأساتذة وكبار الأطباء . تقول لهم ما الفائدة فى أن يمكث طالب الطب سنين طويلة يدرس الأمراض المعقدة . والأساليب الحديثة فى العلاج ثم يذهب إلى الريف ليواجه مشاكل الذباب . وسوء التغذية والكوليرا . والحميات . وإهمال الأطفال والدرن فإنهم ينظرون إلينا من عليائهم . ويتهموننا بأننا شباب جاهل . أو على الأقل متحمس لا يدرك أهمية العلم . وفى رأيى أن العلم الذى لا يحل مشاكل المجتمع الحقيقية علم مزيف . وارتزاق . ولا يمكن أبداً أن يكون العلم الذى نريده . الطبيب عندما يذهب إلى الريف لا يستخدم إلا القليل من المعلومات التى جاهد سنين طويلة للحصول عليها . إنه يحس بالإحباط وبقلة فائدة الأشياء التى أتعب نفسه فى تحصيلها . وهو يريد الهروب فى أقرب فرصة . يرنو إلى المدينة أو حتى إلى الهجرة حيث يمكنه أن يستمر فى الطريق نفسه . أن يدرس فروع الطب العلاجى . ويبنى مستقبله الذى يرتضيه بحكم التكوين الذى حصل عليه . وعندما تقول لكبار المسئولين والأطباء : لماذا لا نركز جهودنا على تكوين نوع من العاملين فى حقل الطب معد نفسياً . واجتماعياً . ومهنياً للقيام بالعمل المطلوب منهم مثل مساعدى الأطباء . والمعاونين الصحيين والممرضات يقولون لنا " أنتم تريدون الهبوط بمستوى الطب وتشجيع الدجل والدجالين " ومع ذلك كل شيء يشير إلى أنهم هم المعزولون عن مشاكل مجتمعنا فالهيئات الدولية الصحية مجمعة الآن على أن هذه الفئات هى التى تصلح لمواجهة المشاكل الصحية الشائعة فى مجتمعنا . وأنه لا داعى لصرف آلاف الجنيهات على تكوين طبيب ثم إرساله إلى الريف . أو المدن

الهند : الإخصائية الاجتماعية تساهم فى تثقيف القرويات

الصغيرة أو حتى الأحياء الشعبية فى المدن ، فهى خسارة كبيرة له وللدولة . أليست تجربة الصين مع الأطباء الحفاة دليلا على أن الطريق الذى نسير فيه خاطئ وأن علينا أن نخرج من قيود التفكير التقليدى المستورد من نظم الغرب » . التفتت إلى وأضافت بعد لحظة صمت : « ما رأيك ؟ أهذا كلام شباب متحمس ؟ » .

قلت :

« إننا فى حاجة إلى رأى الشباب المتحمس وجهوده . وهذه القضايا مطروحة فى كثير من البلاد النامية . إن المناقشات نفسها بدأت من مدة عندنا ، خافتة ، محدودة النطاق أول الأمر ، ولكنها اتسعت الآن لتشمل مختلف الجهات المسئولة ، والعلمية ، وصفحات المجلات ، والجرائد » .

أطرق ناظر المدرسة برأسه إلى الأرض ثم رفع نظرته إلينا وقال :

« لماذا نبقى هكذا بعيداً بعضنا عن بعض ؟ أنتم فى مصر ونحن فى الهند ، مشاكلنا متشابهة وآمالنا متشابهة ، ومع ذلك لا نلتقى إلا بالمصادفة » .

تنظيم الأسرة فى الهند

طوال الثلاثة عشر يوماً التى قضيتها متجولا بين مختلف إدارات ووحدات تنظيم الأسرة فى مدينة دلهى ، والمناطق المجاورة لها فى الريف ، كانت الصحافة تتناول المشكلة السكانية فى عديد من المقالات والدراسات والتعليقات . وكان الطابع الغالب هو عدم الرضى بالنتائج التى وصلوا إليها . فقد كانت الآمال المعقودة على تحقيق انخفاض ملموس فى النمو السكانى تصطدم بعقبات وصعوبات كثيرة لم يتمكن مشروع تنظيم الأسرة من التغلب عليها ، مما حال دون الوصول إلى أهدافه .

ومن خلال المناقشات التى دارت بينى وبين المسئول عن جهاز تنظيم الأسرة ، وهى أستاذة سابقة فى أمراض النساء والولادة ، وكذلك بين

باقى المسئولين فى التخطيط والإعلام والتدريب والتقويم وفى الوحدات المختلفة . استطعت أن أصل إلى بعض الملاحظات الهامة فيما يتعلق بهذا المشروع الحيوى .

والإدارة المختصة بمشروع تنظيم الأسرة فى الهند تابعة لوزارة الصحة : وقد أدت هذه التبعية الإدارية إلى حصر حدود النشاط المتعلق بتنظيم الأسرة فى نطاق الصحة أساساً على حين نجد المشكلة السكانية تتأثر إلى درجة بعيدة بعملية التنمية فى مجالات الصناعة ، والزراعة ، وتشغيل القوى العاملة ذكوراً وإناثاً . والتعليم والتنمية الاجتماعية (رعاية الأسر ، الصناعات الريفية ، دور الحضانة) وبالسياسات التى تتبع فى هذه المجالات . كما أن النشاط الخاص بتنظيم الأسرة يمكن ، بل ينبغى ، أن يدخل كجزء أساسى من المشاريع التى تنفذ فى المجالات المختلفة . ووجود تنظيم الأسرة كإدارة فى وزارة الصحة يعزلها إلى حد كبير عن الوزارات والهيئات الأخرى . ويحول دون أن ترتفع إلى مستوى السياسة القومية المنفذة فى مختلف ميادين التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وعندما شرحت لهم أن المهيمن على تنظيم الأسرة فى مصر هو المجلس الأعلى الذى يضم الوزارات وممثلى الهيئات المهنية بمختلف نواحى المشكلة السكانية وتنظيم الأسرة . اعتبروا هذا الوضع خطوة هامة ومتقدمة يمكن أن تساعد على أن تصبح السياسة السكانية وتنظيم الأسرة جزءاً لا يتجزأ من خطة التنمية . والخطط العشرية .

وقد لاحظت عدداً كبيراً من النساء فى الأعمال المختلفة وعلى الأخص فى تنظيم الأسرة حيث يتولين مسئوليات هامة . ومن بينهن الدكتورة « راو » التى كانت ترافقنى فى جميع الزيارات والتى كانت مثالا للدقة والاهتمام وتحمل المشاق طوال الفترة التى قضيتها فى دهلى ، برغم غياب زوجها الذى كان يعمل ضابطاً فى البحرية عن البيت . واضطرارها إلى تحمل أعباء أطفالها وحدها .

الهند : حديث فى القرية عن تنظيم الأسرة ويرى الإخصائى الاجتماعى يناقش الرجال

جلسنا في مقهى صغير بجوار معرض فني أنيق ثم تحركنا بوضعية نتناول غذاءنا المكون من ساندويتش حمص، وكوب كبير من القهوة المثلجة باللبن. قلت لها:

«أتحبين عملك؟»

«ليس كثيراً. أنا أكره الأعمال الإدارية وأفضل التدريس. ولذلك أسعى إلى نقلي إلى المعهد القومي لتنظيم الأسرة».

كنا قد زرنا المعهد في الصباح. مبنى أبيض كبير في إحدى ضواحي نيودلهي يقوم بالأبحاث والدراسات الخاصة بالمشكلة السكانية وتنظيم الأسرة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والإعلامية إلخ. أحسست إحساساً خفياً وأنا أدور بين أقسامه أنه خال من الناس، محدود النشاط. وعندما سألت الدكتورة «راو» لم تخف على الحقيقة. بل أكدت استنتاجي. وأوضحت أن السبب يكمن في أن جميع الذين يسعون إلى العمل فيه، يعتبرونه جسراً للانتقال إلى الخارج، أو إلى الهيئات الدولية ولذلك يفقد المعهد أساتذته وباحثيه باستمرار.

أعجبتني صراحتها. ولكنني اكتشفت بعد قليل أنها تبدي رأيها بصراحة في كل الأمور. وفي كل الناس بدون تحامل. فأعجبت بها أكثر.

«إذن ربما تريدين أنت أيضاً العمل في الهيئات الدولية»؟

«لفترات قصيرة ربما. فالسفر تجربة ومتعة. ولكن ليس على طول. من يفقد صلته بالوطن يفقد الكثير مهما كانت متاعب هذا الوطن».

«ومتاعب تنظيم الأسرة؟»

«إن المسئولين يعتقدون أحياناً أن الإنجاب مثل الصنبور نستطيع نحن القائمين على المشروع أن نفتحه ونغلقه كما نشاء. لا يدركون أننا نتعامل مع ملايين البشر يتأثرون بعوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية في منتهى التعقيد. إنهم يسألون:

ما هي نسبة انخفاض في نمو سكاني خلال السنة الماضية ؟ . .

« وماذا تفعلون ؟

« ما زلنا ندور في نطاق الصحة . الأسرة . وبالذات في الريف يريدون الأطفال . وحتى السيدات اللائي يستخدمن الحبوب لا ينتظمن في استخدامها وهذا خطأ كبير يؤدى إلى الحمل في كثير من الحالات . إننا نسعى إلى إقناع السيدات بحقيقة هامة وهي أن إطالة الفترات بين الإنجاب مفيدة لصحة الأم والطفل جسدياً . ونفسياً . وفرصة لاستعاضة الطاقة المفقودة . وإن أمثل سن للإنجاب هو ما بين ٢١ و٣٢ سنة وهذه حقائق طبية ينبغي أن يدركها الجميع » .

« وبعد ذلك » .

« ركزنا في الفترات الماضية على حملات التعقيم في النساء وأساساً في الرجال . وهي عملية بسيطة سهلة ونتائجها مضمونة . والناس . بعد عدد معين من الأطفال ، كثيراً ما يريدون التوقف عن الإنجاب . ونحن ندفع حافزاً مالياً للذين يوافقون على إجراء هذه العملية . وقد أقبل عليها ملايين من الناس وأغلبيتهم من الفقراء . ولكن مع ذلك ليس بالأعداد التي يكون لها أثر ملموس على النمو السكاني » .

« أليس للحافز المالي دور في هذا وبخاصة مع الفقراء ؟ فالفقر عندكم شديد الوطأة إلى درجة الجوع » .

« طبعاً . ولكن ما العجب في ذلك طالما أن النتيجة مفيدة ؟ »

« لا أعرف بالضبط . ولكن الفكرة تصدمني من الناحية الإنسانية فضلا عن أنها لم تؤت بالأثر المتوقع على النمو السكاني » .

« هذا صحيح . ولكنها على الأقل تخفف من المشكلة . ألا تستخدمون هذا الأسلوب عندكم » ؟

« لا . إننا نفضل الاعتماد في مشروعنا على الإرادة الحرة والوعي . كما أن الحوافز كثيراً ما تكون أداة للفساد . وبعد ذلك ؟ »

نعتمد في عملنا الإعلامي على إقناع القيادات المحلية . وذوى النفوذ الأدبي والفكري في القرى والأحياء الشعبية . وهم أكثر الناس قدرة في التأثير على الآخرين . وكذلك نعطى العاملين في المصانع اهتماماً خاصاً فظروف حياتهم . والأعباء الأسرية . والتطلع إلى حياة أفضل تجعلهم أكثر استعداداً لتقبل فكرة تنظيم الأسرة . وهناك جهود تبذل لإدخال الدراسات السكانية وتنظيم الأسرة في جميع مراحل التعليم من المرحلة الابتدائية حتى الجامعة . فالأجيال المتعلمة ذات أثر كبير في الأسر وهى التي ستبنى مجتمع المستقبل » .

« ما هى أهم خطوة يمكن في رأيك أن تضمن نجاح تنظيم الأسرة إلى درجة أكبر ؟ »

فكرت قليلا ثم قالت :

« أن يدرك المسئولون . لا بالقول . ولكن بالفعل . أنها مشكلة قومية . أن يدخل البعد السكاني ونشاط تنظيم الأسرة في صلب خطط التنمية والخطط الخمسية والعشرية وفي سياسات التصنيع . والتشغيل . والتعليم والثقافة . والمشاريع الاجتماعية . والزراعة وكل مجالات النشاط . وهذا هو السبيل الوحيد » .

دفعنا الحساب وخرجنا . قالت : « ألا تريد أن ترى بعض المعالم الجميلة في بلادنا ؟ إن تنظيم الأسرة ليس إلا جانباً من جوانب حياتنا » .

قلت ضاحكاً : « في بلادنا يقول الكثيرون إن تنظيم الأسرة وسيلة للتنزه في أنحاء العالم » .

« عندك يوم ونصف إجازة . اذهب إلى دلهي القديمة . ثم سافر إلى أجرا » .

« أجرا . لماذا أجرا ؟ »

دلهى القديمة : صورة من صور الفقر فى الهند

«ألا تعرف ؟ هناك « تاج محل » أتريد أن تزور الهند بدون أن ترى التاج محل ؟

فى الطريق إلى « أجرا »

القطار يزحف بين الحقول الخضراء تذكرنى بالريف فى بلادنا. مساحات منبسطة من الخضرة . تتخللها بيوت من الطين لا تفترق عن مسكن الفلاح المصرى سوى أنها أقل عدداً وأصغر حجماً إلى درجة يصعب معها تصور كيف يمكن أن تحشر أسرة من خمسة أو ستة أفراد نفسها بداخلها . القرى أيضاً مثل القرى المصرية تجمعات من بيوت الطين تفصلها الحوارى المتعرجة . وتحيط بها أكوام من روث البهائم ، وأسراب الأطفال . وسحب من الذباب الأسود . وأمام كل قرية حوش كبير . أو بركة من المياه مزدحمة بعشرات من الجاموس . كتل سوداء ضخمة غاطسة فى المياه بدون حركة . تستمتع بالهروب من الحرارة اللافحة التى تطلقها الشمس . وتطل برءوسها وعيونها على الناس . وعلى القطار المسرع فوق القضبان .

والجاموس هنا قوى البنية . مكتنز الجسد . تحس باللحم والشحم تحت الجلد الأسود المشدود . فالزراعة تعتمد فى الأساس على الأمطار ؛ ومن النافذة تبدو المساحات الشاسعة من الأراضى البائرة لأنها محرومة من سبل الرى . الإنسان يجوع ويتحول إلى هيكل من العظام والجلد . والجاموس لا يعمل فى الحقول إلا عدداً محدوداً من الأشهر : يأكل من الحشائش والنباتات البرية . ويسمن .

ولكن إلى جوار الجاموس الأسود تجد البقر الأبيض يقف فى الحقول أو يتجول فى الحوارى أو حتى فى شوارع المدن . فالبقر مقدس لا يجوز تشغيله أو التعرض له . ولذلك يتمتع بحرية كاملة فى التنقل من مكان إلى مكان مهما كان مزدحماً بالناس والسيارات . تراه يسير كالشبح الأبيض

عظامه بارزة تحت الجلد يبدو عليه جوع الشديد . فطالما أن البقر لا يعمل فليس لأحد مصلحة فى إطعامه . وهكذا نجد هذا التناقض الغريب . حيوان مقدس يتقرض من الإهمال .

والمشكلة السكانية فى الهند تصدمك فى كل مكان . مئات الآلاف من البشر يزدحمون فى المدن والقرى إلى درجة تثير الفزع والناس يجلسون على الأرصفة . وفى الشوارع . وأمام البيوت والحوانيت . وفى محطات السكة الحديد . وفى كل مكان . بل فى أى مكان . وعندما يأتى المساء يفترشون الأرض أو سريراً من البوص والخيزران . وينامون حيث هم . وعندما تمر أمام هذه الأنوف التى لا عمل لها تحس معنى البطالة . العيون الفارغة تحيط بها هالة سوداء محفورة . والصدور البارزة . والأيدى المتروكة فى الحجر . والنظرة التى تبحث بعيداً عن لا شىء . وأفواج الأطفال والشباب تجرى خلفك بكف ممدودة تطلب قطعة من النقود . ذلك أن الاعتماد على المطر فى الزراعة يولد البطالة . والقطاع الصناعى المحدود عاجز عن استيعاب الأيدى العاملة .

كنت قد استقللت القطار فى الصباح الباكر . المحطة مزدحمة بآلاف الناس ، يحملون أمتعتهم . منظرهم يذكرك باللاجئين الذين يحملون بقايا ممتلكاتهم بعد أن قضى عدو غادر على كل شىء فلم يبق معهم إلا صرة ملابس . وغطاء يفترشونه فى أى مكان . وكسرة من الخبز الجاف يغوصون فيها أسنانهم . ومعهم أطفال نصف عرايا بطونهم متورمة وعيونهم جاحظة . وفوق الأرصفة مئات من الأجساد تحملق فى الأقواس الحديدية لسقف المحطة كأنها الضلوع ترفع قفصاً من الزجاج ، أو متكومة على نفسها مستغرقة فى النوم تحاول أن تنكمش بعيداً عن مشاكل الحياة . أجساد ترتدى لباساً أحمر الأون ، زى موحد يشبه زى المساجين . هؤلاء هم « الكوليز » يعملون حمالين فى المحطة . الحقيبة الكبيرة تنقل إلى القطار بنصف روبية . وإزاء عددهم الكبير فإن حصيلة اليوم لا تزيد على روبية

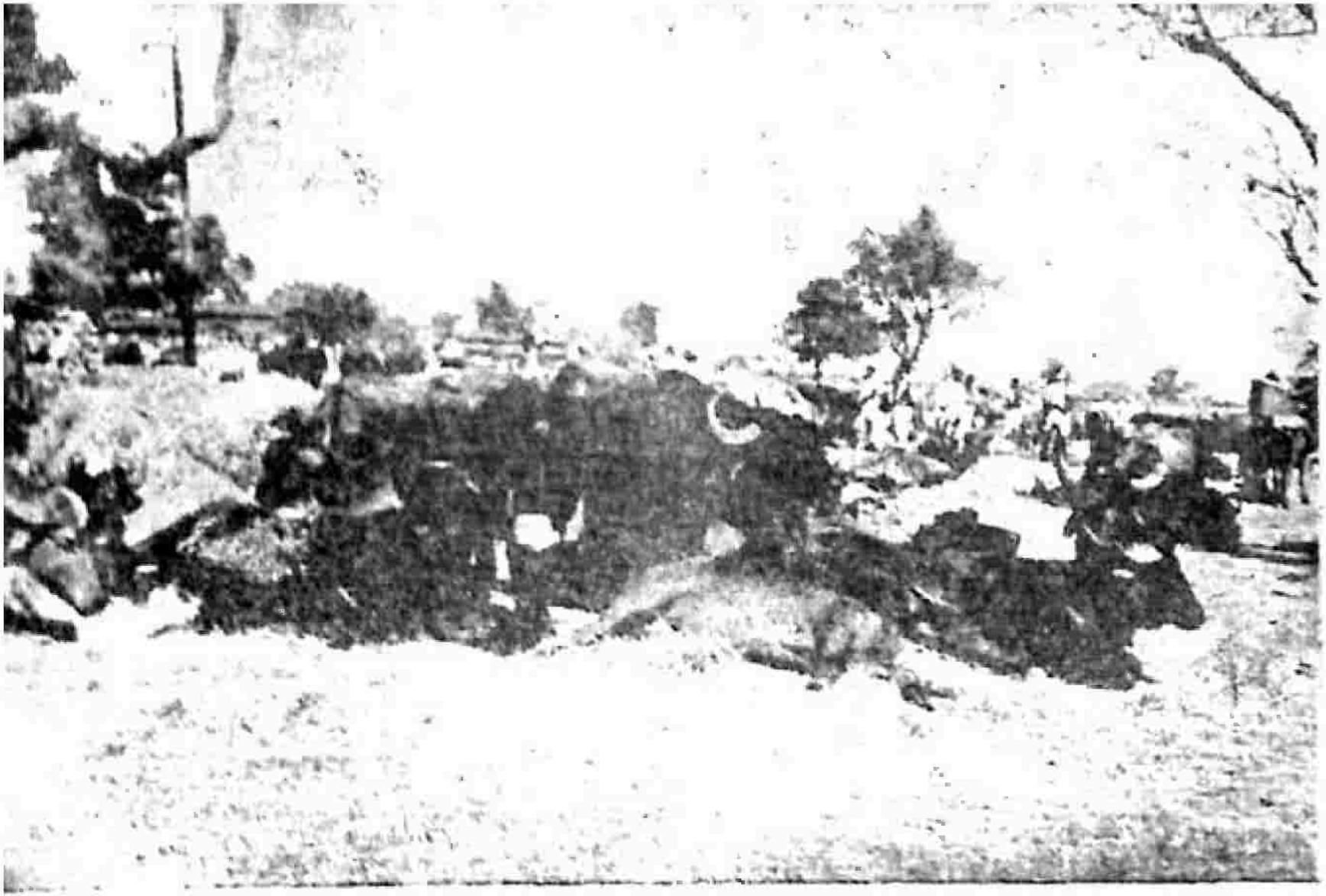

الهند : الجاموس الأسود ولحمه يؤكل بعكس البقر المحرم

فى أحسن الظروف (ستة قروش) .

وعند عربة الدرجة الأولى وقف رجل أسمر يرتدى بدلة بيضاء . كان يحمل كشفاً بأرقام المقاعد بين يديه . نظر فى التذكرة . ودون أسمى فى الكشف ثم أشار إلى بالركوب وجلست فى مكانى .

على الجانب الآخر من القطار كان يجلس اثنان ، شاب وشابة . هو طويل القامة بشكل غير عادى يرتدى ، بنطاوناً كاكيًّا . وقميصاً بنيًّا مفتوحاً . وجهه المنحوت فى زوايا حادة تحيط به لحية طويلة أضفت عليه شيئاً يذكرك بالقسيس . وعيناه فيهما نظرة ثابتة تقل من الزرقة العميقة كحد المويى . كان يتحدث بلهجة أمريكية ممطوطة تميز سكان ولايات الجنوب . أما هى فلم يكن معها سوى حقيبة يد صغيرة . قوامها الرشيق يلفه ثوب بسيط وشعرها الأصفر ينسدل فى تموجات حارة فوق الكتفين .

كانا يتحدثان ويضحكان فى حيوية متدفقة . تحس أنهما تعرفا حديثاً ربما فى القطار فى أثناء السفر . بعد قليل انصرف عنهما إلى النافذة يطل على الحقول والناس من خلال منظار مكبر ضخم أخرجه من كيس للأمتعة كان يحمله معه ، ثم استغرق فى كتاب ماون عن الطيور والعصافير . فاستسلمت لنوم هادئ وقد أسندت رأسها على كتفه فى ألفة مطمئنة . ترى أين التقيا . . . وإلى أين تسير بهما الحياة ؟

إلى أين تسير الهند ؟

أسلمت نفسى لنغمة العجلات المنتظمة فوق القضبان . بالأمس رأيت أنديرا غاندى . كانت الهند تستعد للاحتفال بيوم الاستقلال . وسط أخبار مفزعة عن الجفاف ، والعجز فى محاصيل القمح ، والأسعار الصاعدة وحملات على الحكومة وعلى تخاذلها فى محاربة المحتكرين وتجار السوق السوداء . على جانبى الشارع العريض وقف آلاف ينتظرون

مجيئها . كانت ستحضر اجتماعاً جماهيرياً لشباب . رأيت ضابطاً هندياً يتهادى بعصاه الطويلة على صفوف الواقفين يحاول أن يدفعهم إلى التراجع خطوات . حشدوا فيه بازدراء هادئ فتراجع أمام نظراتهم الباردة المشتعلة يتمتم بصوت منخفض وكأنه يخشى أن يلتقط أحدهم معنى كلماته .

فجأة دقت الموسيقى النحاسية . وارتفعت صيحات الترحيب فتوقعت موكباً من الجند . أو ضابوراً من الموسيكلات ولكن الشارع العريض ظل خالياً . التفت إلى الصفوف المتراصة أحاول أن أستشف مشاعر الناس فلمحت من طرف عينى سيارة جيب عادية تتقدم ببطء وسط الشارع . يقودها جندى . وإلى جواره جلس أحد الضباط وخلفهما وقفت امرأة سمراء منتصبة القامة ترتدى ساريا أبيض وعيناها الواسعتان دائرتان من الفحم . وشعرها الأسود يتخلله شريط أبيض من الشيب . كانت تمسك ظهر المقعد بيد وتلوح بيد أخرى . وتبتسم ابتسامة فيها خليط من الحزن والحنان . توقفت السيارة . واندفع نحوها جمع من الشباب يحملون باقات الزهور . انحنت تتلقفها منهم ثم استأنفت السيارة مسيرها وهى تحمل الزهور بين ذراعيها وتضىء وجهها الابتسامة نفسها .

هكذا رأيت أنديرا غاندى بالمصادفة . وهذه هى صورتها كما رأيتها فى شوارع نيودلهى . ولكن المدة القصيرة التى قضيتها فى الهند أعطتنى بعض الانطباعات عن المرأة التى تحكم ما يقرب من ٦٠٠ مليون من البشر .

من الأشياء التى كانت تثير تساؤلى . هو ماذا تمكنت المرأة فى الهند وسيلان (سرى لانكا الآن) بالذات من أن تحتل منصب رئيسة الدولة . ففى سيلان تحكم باندرانايكه . وفى الهند أنديرا غاندى . وهذه بالطبع ظاهرة غير عادية حتى فى عالم القرن العشرين . وهى لم تحدث حتى فى البلاد الاشتراكية التى قطعت شوطاً بعيداً فى المساواة بين الرجل والمرأة . بل هناك مجتمعات تستنكف رئاسة المرأة للرجل فى العمل ، وتعتبرها

؟ عجيب . وعندما زرت الهند لاحظت أن مثل هذه القضية لا تشكل مشكلة على الإطلاق على الأقل فى مجتمع نيودلهى . فالمرأة المثقفة تعمل فى كل الميادين وتحتل وظائف رئاسية فى كثير من الأحيان وهى مسئولة عن قيادة عدد كبير من الرجال وتوجيههم . وعند ما سألت بعض السيدات اللائى يتولين مناصب هامة عما إذا كان وضعهن كنساء يسبب لهن متاعب مع الرجال وجدت نفياً قاطعاً لأية شبهة من هذا القبيل . ويبدو أن المجتمع فى الهند قد تعود هذه الظاهرة منذ سنين كما هو الحال فى بعض القطاعات المحدودة عندنا مثل الشئون الاجتماعية . ولكن عندما حاولت أن أفهم أسباب هذا التقدم فى وضع المرأة لم أهتد إلى أسباب مقنعة . فالهند ما زالت بلداً نامياً يعانى من التخلف الاقتصادى والاجتماعى . وظاهرة اشتغال المرأة ما زالت محدودة النطاق ؛ كما أن النساء لا يتمتعن بكل حقوق الرجل . ومع ذلك فإن مكانة المرأة فى الحياة العامة ، وفى المجتمعات ، وفى العمل وتمتعها بقدر كبير من الحرية والاستقلال ظاهرة ملفتة للنظر ، وناحية من نواحى التقدم فى الهند . ويبدو من ضمن الأسباب أن الديانة الهندوكية ، التى يؤمن بها أغلب سكان الهند لا تفرق بين الأنثى والذكر برغم وجود فواصل واضحة وجامدة بين الطبقات الاجتماعية . فقد عرفت الهند طويلا بنظام « المنبوذين » الذين كانوا يتولون الأعمال التى تعتبر وضيعة فى المجتمع ، ويشكلون الكتلة الرئيسية من الفقراء ، ذلك النظام الذى وجه إليه « غاندى » أعنف الضربات إلى أن تقلصت مظاهره إلى نطاق محدود للغاية .

كانوا قد وضعوا تحت تصرفى سيارة أتنقل بها فى « نيودلهى » فى أثناء زياراتى لمختلف الأنشطة الخاصة بتنظيم الأسرة . وإلى جانب سائق السيارة كان يرافقنى فى بعض الأحيان أحد مندوبى إدارة الإعلام .

وفى يوم من الأيام كنا نتجه إلى مؤسسة فورد بجوار الحدائق المشهورة المسماة « أودى جاردنز » . كان أمامنا متسع من الوقت قبل الميعاد فاقترحت

على مرافقي أن نتناول فنجاناً من القهوة وبعض الحلويات الهندية التي أردت أن أتذوقها لأول مرة . فتوقفنا أمام محل صغير . دخلنا من الباب ولكنني لاحظت أن السائق بقي في الخارج مع السيارة فطلبت من مرافقي أن يلحق بنا . عندما جلسنا في المحل رفض السائق رفضاً باتاً أن يجلس معنا على نفس المائدة أو أن يأكل من نفس أطباق الحلويات التي اخترناها .

وبعد أن خرجنا من المحل سألت مرافقي عن السبب فقال : « غاندي ألغى جزءاً كبيراً من الفواصل بين الطبقات . ولكن هناك بقايا ما زال تحطيمها أمراً يتطلب مزيداً من التطور الاجتماعي والنفسي » .

وهذه هي إحدى المعارك التي دخلت فيها أنديرا غاندي . في الفترة التي زرت فيها الهند كانت في أوج شعبيتها . إنها استطاعت بالاعتماد على الجناح المتقدم في حزب المؤتمر ، وعلى اليسار ، وعن طريق اللجوء إلى جماهير الشعب أن تحقق انتصاراً ساحقاً في الانتخابات ، وأن تعزل الجناح الرجعي في حزب المؤتمر . وكانت قد حققت انتصاراً عسكرياً حاسماً وسريعاً للهند على الجيوش الباكستانية في الحرب التي قامت حول مشكلة استقلال بنجلاديش . ولكن في الوقت نفسه كانت تواجه مشاكل معقدة وصعبة تتعلق بالتطور الاقتصادي والاجتماعي للبلاد .

المواد الغذائية أصابها نقص شديد نتيجة للجفاف ، والأسعار تصعد بشكل جنوني ، والأوساط الرأسمالية تستفيد من الوضع للمضاربة بالأسعار والنيل من الشعبية التي اكتسبتها أنديرا غاندي . وكل الدلائل تشير إلى أن استمرار الأوضاع كما هي لا بد أن تساعد أعداء التقدم على الاستفادة من هذه المصاعب ، ومن غيرها ، لتوجه سخط الجماهير ضد سياستها ، وضد الإجراءات التي اتخذتها مثل تأميم البنوك ، وشركات التأمين وبعض الصناعات الهامة . وهي في مركز قوي ، تتمتع بتأييد واسع من الجماهير ، والتوقيت أنسب ما يكون لاتخاذ خطوات جديدة حاسمة في الطريق نفسه ومع ذلك فهي تنتظر .

الهند : قرية هندية حيث يستخدمون الأدوات البدائية

هكذا صور لى الموقف أغلب الذين قابلتهم . ما عدا ذلك العدد القليل الذى تتجه آماله نحو طريق آخر : طريق النمو الرأسمالى .
فإذا زرت الهند فى هذه الأيام تحس أنها فى مفترق الطرق .

الرخام الخصب

هبطنا من القطار وركبنا الأتوبيس المنتظر خارج المحطة . انطلق بنا عبر الشوارع الضيقة المتعرجة . مئات الحوانيت الصغيرة تبيع الصنادل والخبوب . والأطعمة والأقمشة . وخليطاً من السلع المستعملة ؛ وآلاف من الناس يجلسون أمامها . أحياناً نصف عرايا . والأطفال بأعداد لا تحصى . والذباب ولفحة الجو الحار الرطب ؛ وأزيز المروحة فى الأتوبيس مثل قوس فى يد طفل يروح ويجىء على أوتار الربابة يرهق الأعصاب .

مدن المغول جدران حمراء تحيط بالقصور . والقصور صروح أقامتها أيادى البنائين الماهرة ترتفع طابقاً فوق طابق لتطل على الوادى الأخضر يمتد حتى الأفق . وبحار للمياه ومساقط . وحجرات وأحواش ؛ وكل شىء مبنى من كتل الحجارة الحمراء . معمار يدل على الفن والجبروت فى آن واحد ، خليط من المدنية والبربرية ، مزيج من الحس المرهف والقسوة ؛ يشعرك بأن الحياة هنا كانت تحلق فوقها رائحة العطور والدم المسفوك .

وعندما أذهب لرؤية هذه العالم فإننى نادراً ما أشعر بمتعة حقيقية . فالحجارة مهما كانت جميلة لا تترك فى عقلى أو قلبى شيئاً أحمله معى بعد أن أترك المكان . الحجر لا يشعل الفكر والخيال إلا منحوتاً أو مصبوباً فى بعض التماثيل . عندئذ يتحدث الحجر الصامت بعذاب الفنان ومعاناته ، أما آثار المعمار الضخمة فتعيد إلىّ المطعم المر للطغيان والرق .
أخيراً وصلنا إلى مقصدنا . دلفنا من البوابة الحجرية إلى حوش مربع

تحيط به الأبنية الحمراء التى أصبحت جزءاً من المناظر المألوفة لدى . صعدنا السلالم إلى قوس مفتوح فى البناء . تقدمت بخطوات بطيئة أستمتع بالنسيم المنعش الرطب الذى هب علينا فجأة ينساب بدفعات قوية لينة عبر القوس المفتوح . خطت قدماى فوق آخر درجة وسارت فوق أرض من الرخام الأبيض لتقع عيناى على منظر لم أر مثيلا له من قبل .

عبر القوس المفتوح على بعد ما يقرب من مائة متر رأيت بناء كالنافورة البيضاء تتفجر من أحشاء الأرض الخضراء . قبة مستديرة كالنهد ، ومآذن عند الأركان ترتفع فى تحد نحو السماء . والرخام الأبيض يشتعل بهدوء فى ألوان الشمس المشرقة .

همس الترجمان فى صوت خفيض :

« قيل إن السلطان حزن حزناً عميقاً على موت زوجته . فقد كانت أحب النساء إلى قلبه فأمر بإقامة هذا الضريح ليحتوى جسدها » .

قلت :

« ولكن اليد التى صنعت هذه الخطوط تمردت على أوامر السلطان » .

« كيف؟ »

« اليد لم تصنع ضريحاً لحب السلطان ، فالسلطان لم يكن يعرف معنى الحب » .

« ماذا صنعت إذن ؟ »

« صنعت ضريحاً للحب الحقيقى ، لشفافية الإنسان ، وخصوبة الحياة » .

قال الترجمان :

ولكن هذا هو « التاج محل » .

نظرت إليه كأننى لم أسمعه . سرت بخطوات بطيئة أقترب من الضريح . تملكتنى رغبة عارمة فى أن ألمسه ، كأن الرخام الأبيض سيرتعش بالحياة تحت يدى .

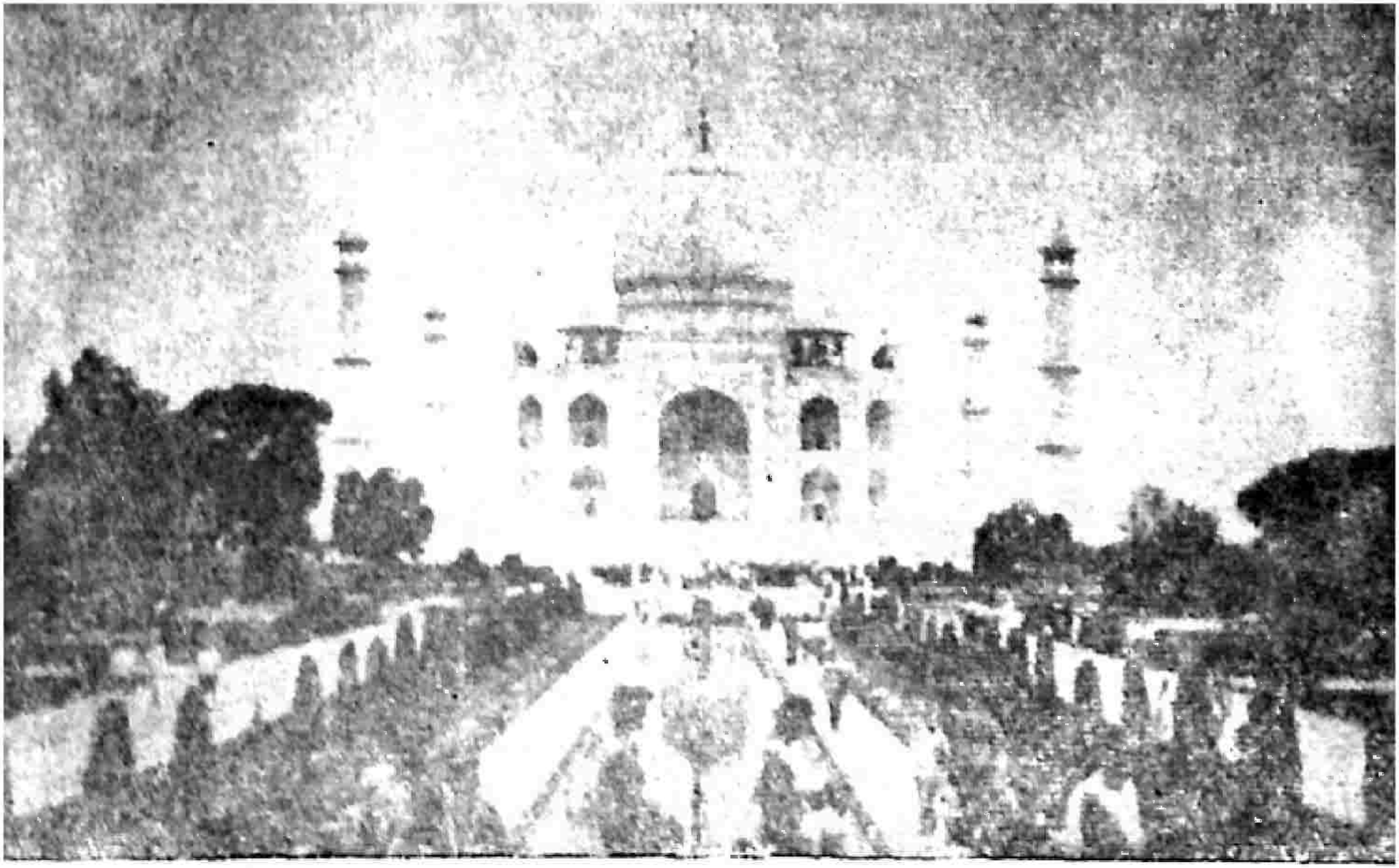

الهند : (تاج محل) ، ضريح للحب صنعته أيد فنانة

عودة من « التاج محل »

ما زالت أمامنا ساعتان قبل أن نستقل قطار العودة من « أجرا » إلى « نيودلهى » . أخذت أتجول فى شوارع المدينة الصغيرة . صف طويل من الحوانيت تبدو خالية من الزبائن . ومع ذلك أصحابها وعمالها يقفون داخلها كأنهم على أهبة الاستعداد . ترى عيونهم السوداء اليقظة تلمع فى البياض .

والهنود تجار محنكون ينتشرون فى عدد كبير من البلاد الآسيوية والأفريقية ويكونون جاليات كبيرة عدديًا ولها ثقل اقتصادى كبير بسبب سيطرتها على التجارة . وعلى عديد من الحرف . ولكن برغم يقظتهم لفرص كسب المال فلم أستمتع بالشراء فى أى بلد من البلاد مثلما استمتعت فى الهند .

الحانوت الضيق المستطيل يمتد مسافة ثلاثة أو أربعة أمتار وعرضه لا يزيد على متر ونصف . وبطول الجدار على كل جانب تجد مصطبة من الخشب لا يزيد ارتفاعها على متر على الأكثر مغطاة بقماش أو سجاد مدون . تدخل الحانوت على أصوات الترحيب وتجلس متربعاً على المصطبة ويتربع التاجر على المصطبة أمامك .

ذات صباح دخلت أحد متاجر الأقمشة فى « بانجات مارج » . جلست القرفصاء أمام التاجر . رجل أسمر يبدو فوق الخمسين ، هادئ وقور ، يرتدى اللباس الأبيض الهندى وفوق رأسه الطاقية البيضاء .

« صباح الخير » قالها الرجل بالإنجليزية .

« صباح الخير » .

« أية خدمة ؟ »

« أريد أن أشترى قمصاناً مطرزة » .

نظر إلى بعينيه الصغيرتين الذكيتين .

من أى بلد أنت ؟ »

« من مصر » .

« وماذا جئت ؟ تسياحة ؟

« لا . لزيارة مشاريع تنظيم الأسرة . أسمعت عن وسائل تنظيم الأسرة ؟ »

« نعم . ولكننى لا أمارسها » .

« لماذا ؟ »

« لأن الدنيا لم تضق فى وجهى بعد » .

إذن تعتقد أن تنظيم الأسرة للفقراء فقط » .

« لا ، إننى لا أقصد ذلك . أقصد أنه علينا أن ننجب أطفالا على قدر طاقتنا فى توفير سبل الحياة لهم » .

« معك حق » .

« ولكن ينبغى أن نسعى لتوسيع سبل الحياة على الناس » .

« وكيف ذلك ؟ »

« أن ننمى مواردنا . وأن توزع بعدالة بين الناس » .

« أليس هذا ما تفعلون » ؟

« هكذا تقول الحكومة . ولكن ما زلنا بعيدين عن تحقيقه . والمصالح الكبيرة فى بلادنا ما زالت تلعب بمصايرنا . وهم يمارسون ضغوطاً ونفوذاً على الحكومة . ونحن التجار الصغار فريسة للكبار » . . .

سكت لحظة كأنه سرح فى شىء بعيد ثم استطرد : « زوجتى مرضت منذ شهرين فصرفنا مبالغ طائلة على الأطباء والأدوية . أسعار الأدوية عندنا تفوق إمكانيات متوسطى الحال مثلى ، ناهيك بالفقراء الذين يستحيل عليهم شراؤها . فصناعة الأدوية هنا تحتكرها الشركات الأجنبية الكبرى . تحقق أرباحاً خيالية تصل إلى ضعف أو ثلاثة أضعاف أسعار الأدوية وتعصرها من المستهلكين الذين يدفعون ثمنها . الإنسان يولد ويدور

كالبقرة فى الساقية طوال حياته ثم يموت . ولا يوجد إلا قلة ضئيلة تستمتع على حساب الآخرين . أليس كذلك ؟ »

« هو كذلك »

حملق فى وجهى كأنه يريد أن يستشف مشاعرى إزاء ما يقول :

« أنت لم تأت لتسمع كلامى » .

« على العكس . أحب أن أستمع إليك . هل تنتمى إلى حزب من الأحزاب ؟ »

« أنا عضو فى حزب المؤتمر منذ سنين طويلة » .

« وما رأيك فى سياسة حزب المؤتمر الآن ؟ »

هز كتفيه فى حركة تنم عن الحيرة .

« لم يعد واضحاً ماذا تريد "أنديرا" . إنها تتحدث عن الاشتراكية ولكن الرأسمالية تنمو . ومع ذلك نشعر أنها تحب الهند وتريد أن تبنيها بناء جديداً » .

ضرب على جرس يدوى صغير إلى جواره . ظهر صبى من خلف ستارة عند آخر الحانوت .

« قهوة » .

« أشكرك . لا داعى » .

« لا . . . لا بد من أن تتناول فنجاناً من القهوة . القهوة مستحبة فى الصباح الباكر » .

ثم وقف يقدميه الحافيتين على المصطبة الخشبية وأخذ يسحب من فوق الرفوف أكواماً من القمصان . فى لمح البصر وجدت أمامى عشرات القمصان بألوانها الزاهية كالأعلام المتموجة فى الريح ، وعلى صدر كل قميص رسوم مطرزة بيد تحس فيها الذوق الرفيع الذى لا يصنعه إلا تراث الأجيال .

أخذ يستعرض بضاعته ، تحس فى حركة يده وهى تبسط القماش

أمامك أنه فخور بما تراه عيناك ، وأن عملية البيع بالنسبة إليه ليست تجارة وإنما استمتاع وتذوق هادئ للأشياء . إنه لا يوحي إليك أبداً بأنه مصر على أن تشترى شيئاً ، ولا أن العمل الذى يقوم به هدفه أن تخرج من هذا المكان بلفة تحملها تحت إبطك . إنه كالفنان الذى يعرض لوحاته لا يمل من طلباتك ، وكأنه على استعداد لأن تتفرج على كل البضاعة المصفوفة على الرفوف المنتظمة بعضها فوق بعض حتى السقف .

وأمام هذا الجو الهادئ الصبور كان لا بد أن أشترى شيئاً ، ولكنه جعل من النصف ساعة التى قضيتها فى المكان لحظات من التبادل الإنسانى والفنى . تضاف إلى تلك اللحظات من المتعة البسيطة التى تحس فى النهاية أنها هى « الحياة » .

ولكن ليس فى شارع « أجراء » الرئيسى ما يلفت الاهتمام . تحس هنا أنهم تعودوا اصطياد السياح ، وأن كل صاحب حانوت يقف عند الباب يحملق فى المارة كأنه يبحث عن فريسة . والعيون السوداء هنا كالجواهر المصقولة لها نظرة نفاذة كنظرة الطيور الجارحة .

أحسست بالجوع ينقض على فجأة فدخلت أحد المطاعم . « الجارسون » يقف على بضع خطوات منك وعيناه مصوبة إليك فى نظرة استعطاف توحى إليك بطلب المزيد . هذه النظرة تحس بها كثيراً فى الهند تولد لديك مزيجاً من الضيق والشفقة لأنها نظرة الفقر . إلى جوارى جلس اثنان ، شاب وشابة عرفت من كلامهما أصلهما الفرنسى . كان الشاب يرتدى بنطلوناً ضيقاً وقميصاً ملوناً ، يتحدث بصوت عال وحركاته تنم عن العجرفة . كان فى حالة هياج مستمرة . كلماته تنطلق فى عصبية ، يطلب شيئاً ثم يعيده إلى « الجارسون » رافعاً أنفه إلى أعلى فى ازدراء .

وجلست الشابة أمامه صامتة تنظر إليه بعينين فيهما استسلام لقدر لا بد من تحمله .

حول المائدة الأخرى التفت أسرة من « السيخ » . رجلان أجسادهما

ضخمة ، تزيد من ضخامتها اللحية السوداء المسترسلة . وطفلان كالعيدان الخشبية المحروقة لا ترى فيها سوى لعيون الفاحمة . رائحة العطر ، وحرير العمامة ، واللحية الناعمة تشعرك بشيء كالأنوثة . بالجنس المزدوج ..

أحسست بالطعام يسرى كالتيار الدافئ في جسدي . أشعلت سيجارتي واستسلمت لإحساس من الرضى بالحياة . لحظات نعيشها بعيداً عن طاحونة الأيام . لحظات نادرة قصيرة كالأحلام تتبخر في الصباح ولكنها تبقى في الذاكرة كأنها الشيء الوحيد الحقيقي في هذه الحياة . ترى لماذا كان يحلم صانع « التاج محل » ؟

« أتشا »

لا أميل بطبعي إلى الذين يتكلمون كثيراً . وتجربتي في الحياة جعلتني أحاذر من نوعين من الناس : الثرثارين ، والذين يدافعون عن آرائهم بتطرف ، فلم أتذكر أنني قابلت شخصاً يتسم بالجدية والعمق ويكون كثير الكلام في الوقت نفسه . بل على العكس عندما أختلط بالناس ، أجد نفسي منجذباً بشكل طبيعي نحو الشخص الذي يبقى صامتاً ، وأبذل المحاولات لاستكشاف ما يخفيه هذا الصمت تحت السطح . ولا أقصد بالطبع أن هناك تلازماً حتمياً بين الصمت والعمق . ففي بعض الأحيان تكتشف أن الصمت يعبر عن فراغ الشخصية ، عن عدم وجود شيء في أعماق الشخص يستطيع أن يعبر عنه .

أما التطرف في الآراء فهو غالباً ما ينم عن محاولة لإخفاء حقيقة الإنسان . فالذي يتحدث كثيراً عن الثورة تجده كفص الملح يذوب عندما تندفع الأحداث وتتأزم ، والذي يتحدث عن الشجاعة يرتجف إذا ما استلزم الأمر أن يواجه من هو أقوى منه . بل كثيراً ما تجد ارتباطاً وثيقاً بين الثرثرة والتطرف . فهما ينمان عن كيان أجوف كالطبلة ، تحدث ضجيجاً وهي ملأى بالهواء .

والهنود بطبعهم ثرثارون . وهذه إحدى الصفات التي لا تعجبني فيهم . وربما كانت هذه الصفة علامة من علامات التخلف . فعندما تتقدم الشعوب يتعمق إدراكها للعالم الذي يحيط بها ؛ وتنمو قدرتها في السيطرة عليه وتسييره وفقاً لرغباتها ؛ وتغييره في الاتجاه الذي تريده . وهنا يحل الفعل مكان الكلمة . وتصبح الكلمة تعبيراً دقيقاً ومختصراً للفعل ، وتتحول اللغة من أداة للبلاغة إلى أداة للعمل .

ومع ذلك فإن للكلمة جمالها . ويزداد جمالها كلما كانت قادرة على التعبير باختصار عن معنى محدد . وفي اللغة الهندية هناك كلمة أسرتني بجاذبيتها . كلمة « أتشا » إنها تعني نعم . ولكن مع ذلك فلها عشرات المعاني التي تتباين . وتتلون . وتتنوع ظلالها حسب الطريقة التي تنطق بها . قوية قاطعة أحياناً . مفعمة بالحنان والرقة أحياناً أخرى . تتباين حسب حركة اليد . أو الكتفين . أو نظرة العينين . أو ذبذبة الأحبال الصوتية . واكتشفت بالتدريج أنها تعني نعم . ولكنها أحياناً تعني « لا » أو « هكذا » ؟ أو « موافق » أو « أنا مندهش » أو « أنا مستنكر » أو « كما تشاء » أو « أنا مستسلم لك » . وعندما أتذكر الهندي ترن كلمة « أتشا » في أذني كالنغم . وتجد معها عشرات بل مئات من صور تلك القارة الضخمة التي تضطرم حياتها بسخونة الملايين .

المتاجرون بالخرافة !

في يوم من الأيام كانت المياه تباع في بعض أحياء القاهرة . وفي المدن الهندية الكبيرة تجد رجالا يقفون أمام فناطيس ضخمة مثبتة فوق أربع عجلات يدفعونها أمامهم . ليبيعوا أكواب المياه المثلجة بمبلغ يساوي قرشاً واحداً من قروشنا .

ومدينة نيودلهي ليست مدينة واحدة بل مدينتين : دلهي الحديثة

ودلهى القديمة . وفى إحدى الأمسيات قادتنى السيارة الفولكس الصغيرة إلى المدينة القديمة . كنت قد رأيت « القلعة الحمراء » وضريحى نهرو وغاندى من قبل ؛ ولكننى ذهبت هذه المرة أقصد زيارة الجامع الضخم الذى تخت مآذنه العالية ترتفع فى عناد نحو السماء الرمادية .

والسماء هنا دائماً رمادية . لا ترى مساحة زرقاء إلا فى القليل النادر . وفى أغلب الوقت تهطل الأمطار الغزيرة فى سيول لا تنقطع لتحول الشوارع إلى أنهار وقنوات كأنك تعيش فى مدينة عائمة .

ولكن فى هذا اليوم كانت الرياح المنعشة تجتاز المساحات الخضراء بعد أسبوع من الأمطار المستمرة . الجامع يرتفع على ربوة عالية يطل بكبرياء فوق المدينة القديمة . وحول الجامع شوارع ضيقة ازدحمت بالناس والحوانيت الصغيرة وعلى الأرصفة « تندات » ممزقة مرفوعة على عصى من الخشب تحتها أكوام من الملابس القديمة والخرق والحبال ، والزجاجات الفارغة تفوح منها رائحة غريبة خانقة ، والمسامير الصدئة . ورجال عُجُز وصبيان فى أسمالهم الممزقة يحملقون أمامهم فى يأس كأنهم فقدوا الأمل منذ زمن بعيد فى أن يلتفت أحد إلى بضاعتهم . والسلالم العريضة تصعد إلى الجامع من جميع الاتجاهات يجلس عليها مئات الشحاذين ، أجسادهم بلا عيون ، أو بذراع واحدة تمتد إليك ، أو بسيقان تنتهى عند الركبة . ورجال ينامون على البلاط يسيل من أفواههم لعاب أبيض كالذى أصابته نوبة صرع . ووجوه لا ترى فيها سوى عيون تحدق ، وعروق وعظام . فهنا فوق درجات الجامع رأيت الجوع يتحرك ، ويمشى ويتجول بنظراته الضائعة .

عند مدخل الجامع وقف رجل طويل القامة كعصاه الخيزران ، الوجه المدبب ينتهى عند الذقن فى لحية بيضاء ، وعلى جلده الأحمر تشوهات الجدرى القديم .

خلعت حذائى وتأهبت لدخول الجامع . خاطبنى الرجل بلغة عربية

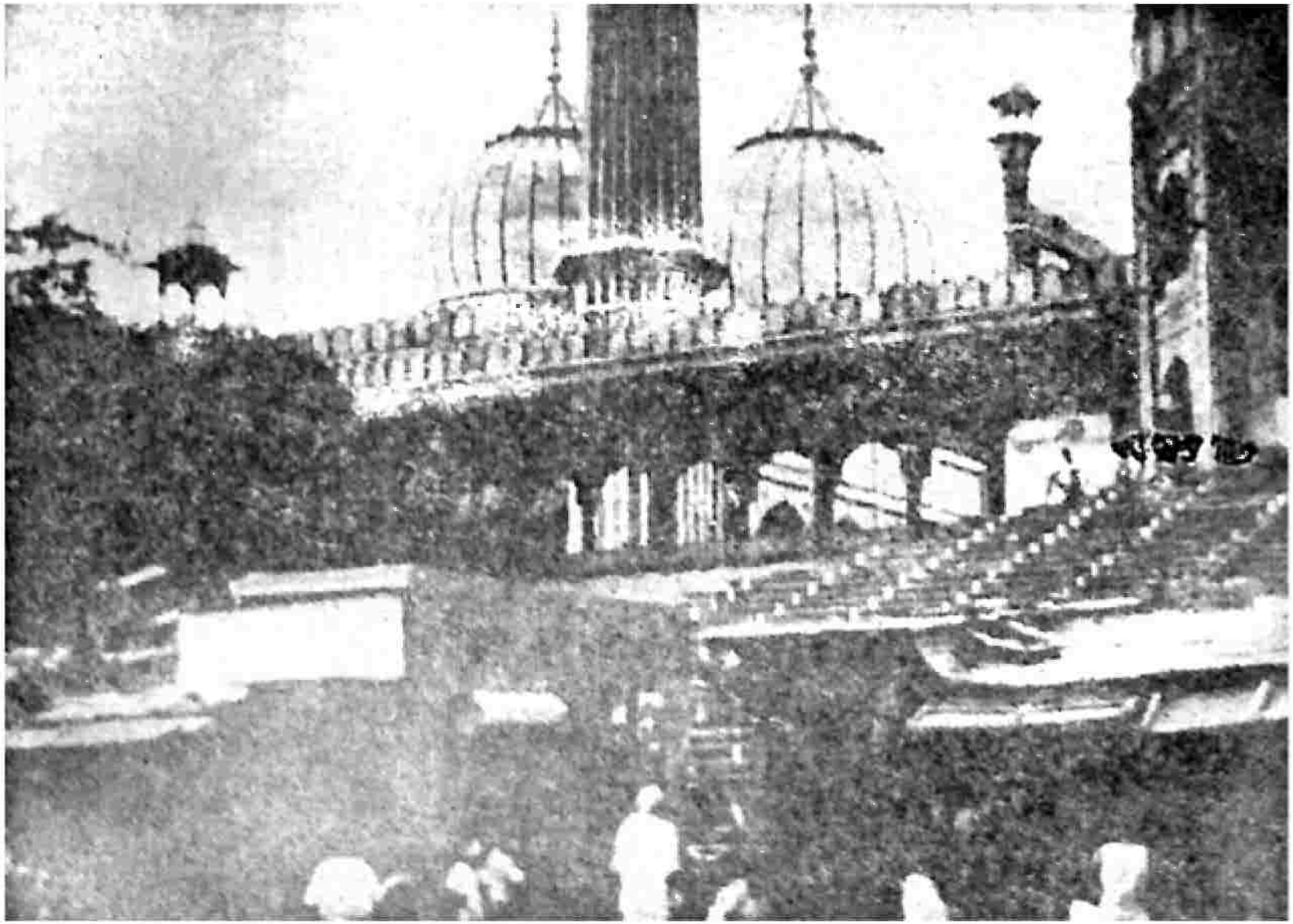

دلهى القديمة : لقطة داخل القلعة الحمراء

ركيكة تبينت بعض كلماتها بصعوبة شديدة .

« مسلم أنت ؟ »

« نعم من مصر » .

انكشفت شفتاه الرفيعتان عن أسنان مدببة كالأنياب :

« إذن تعال معي » .

سرت وراءه . قادني إلى زاوية من زاويا الجامع . الأرض مفروشة بالسجاد وفي الجدار قوس مفتوح يقود إلى حجرة صغيرة لاتكاد تسع الرجل الجالس القرفصاء داخلها وإلى جواره صندوق أسود صغير . اقتربت بشيء من الحذر . الرجل طويل نحيل والوجه تكسوه صفرة مريضة يؤكده سواد اللحية الفاحم .

كان يرتدي قفطاناً أسود . وعمامة . ويحمل في يده اليسرى مسبحة طويلة تدور بين أصابعه العصبية .

أحسست بعينين سوداوين باردتين تستقران على وجهي ، وانتابني شيء كالقشعريرة الخفية .

فتح الصندوق وأخرج صفحات من الجلد صفراء مكتوب عليها بالخط الكوفي . قال :

« هذا قرآن سيدنا علي » .

حملقت فيه بشيء من الاندهاش ثم أومأت برأسي في محاولة لإخفاء ما كان يدور في ذهني . أخرج قطعة حجر انطبعت عليها معالم قدم .

« وهذا قدم النبي ... أذاب الحجر فانطبعت عليه قدمه وهو يسير » .

أعاد الأوراق وقطعة الحجر وأخرج زوجاً من الصنادل البدوية كادت أن تتفتت من شدة القدم .

كان يحملها برفق ويتمتم بكلمات غير مفهومة كأنه يتعامل مع

أشياء مقدسة . استقرت على وجهى نظرة العينين الباردة . أحسست وكأنى أواجه نظرة الثعبان .

قال :

« وهذا صندل النبى » . ثم مد يده وأخرج حزمة شعر واستطرد « شعرات من ذقن النبى عليه الصلاة والسلام » وكأنه تذكر هذه المرة إضافة « عليه الصلاة والسلام » .

أومأت برأسى من جديد كأنى أؤكد صدق كلامه ودقته . فتح علبة خشبية مطلية بقشرة تبدو كالفضة . فى القاع كانت ترقد بعض قطع النقود .

أحسست بالعناد يستولى على ، ذلك العناد الذى يتملكنى كلما واجهت من يحاول أن ينصب على بأى شكل من الأشكال .

قلت :

« لا » .

استدرت سائراً فوق البساط . ارتديت حذائى تحت نظرات الكراهية وكأنها فوهات بنادق . هبطت السلالم بين الأجساد المعذبة المتناثرة فوق الأرض ، والعيون كالأفواه الفاغرة الجائعة .

أحسست بقطرات المطر تسقط فوق رأسى وذراعى . سرت متجاهلا الإنذار . كانت بى رغبة إلى السير تحت المطر : إلى الغرق تحت مياه السيول وكأننى أسعى إلى إطفاء شعلة الغضب التى تحرقنى كالجمرة الدفينة . مر بى رجل يركب دراجة . توقف عندما رآنى أخوض تحت المطر على قدمى . أشار إلى بالركوب خلفه . كان قد ثبت مظلة سوداء فوق دراجته فسرنا عبر الشوارع تبدو كالأنهار الفائرة فى زمن الفيضان . الرجل نحيل ترى عضلات ساقيه نافرة كالأسلاك من شدة المجهود . مر الوقت وكأن المسافة إلى نيودلهى لا نهاية لها . ندمت على أننى ركبت خلفه وفكرت فى النزول . كنت أحس من تقوس ظهره ، ومن ضغط قدميه

على البدائل بالمجهود الذى يبذله ولكننى أدركت أننى سأحرمه من روبية أو اثنتين يحلم بهما الآن ، وهو يشق طريقه عبر المطر المنهمر ، ويتخيل نفسه عائداً إلى البيت يحمل إليهم ما يسكت جوعهم ولو إلى حين .

المطر يرف على الشوارع والأرصفة بصوت كملايين الأصابع الرفيعة ، وبين الحين والحين ينطلق الرعد بذلك الصوت المخيف الذى يجعلك تتوقع كارثة ما . تذكرت طفولتى . كانوا يقولون لى إن الرعد هو اصطدام بين السحب الكثيفة الغاضبة . كل طلقة للرعد تبدو كالكرباج الطائل تسمع لسعة ذيله عند آخر السماء . وبعد الرعد ينهمر المطر أكثر بغزارة . مررنا وسط حدائق وبيوت الأحياء الفاخرة . رأيت بوابة ترتفع كقوس النصر وطريقاً يمتد فى خط مستقيم إلى داخل حديقة هائلة . وعند آخر الطريق قصر أحور يرتفع كتلا من الحجر الصامت بدا بعيداً منغلقاً على نفسه ، كأن أحداً لا يستطيع أن يصل إليه ليكشف ما وراء الجدران . سمعت أنفاس الرجل اللاهثة وهو يقول :

« قصر الرئاسة » أحسست بالماضى يجثم بثقله على هذه البلاد الجذابة المفزعة ، الجميلة القبيحة تختلط فيها الألوان الحلوة والآمال بسواد الجوع وقسوته . فالجدران العالية تراها فى كل مكان تفصل بين مجتمعين ، بين دلهى الجديدة ودلهى القديمة ، بين الهند التى تولد مع صحوة الملايين وبين الهند التى يريدها سلاطين الأرض والمال .

مناقشة فى حدائق « لودى » !

كل شىء معد الآن للرحيل . الحقائب مجهزة فى الحجرة . والحساب مدفوع . منذ يومين تناولت العشاء فى منزل مدير إدارة التدريب بجهاز تنظيم الأسرة وهو أستاذ سابق للباتولوجية (علم الأنسجة المريضة) فى كلية الطب . كان يستعد للعودة إلى الجامعة مرة أخرى . شقة كبيرة جدرانها عالية ، وأضواؤها خافتة وأثاثها عتيق قاتم ، يخيم عليها جو من البرود الغريب ، وكأن الذين

يعيشون هنا بقايا لماضى مات وانتهى . الرجل طيب ، وزوجته سيدة متدينة أشد طيبة وبنتها سنها بحدى وعشرون سنة حلوة كالفراشة . ولكنك تحس أنهم يحيون فى عالم من صنعهم . عالم رومانسى يجيش بالعواطف ، ولكنه مفصول عن الحياة ، مفصول عن الحركة الدائبة الساخنة للجموع التى تروح وتجىء فى شوارع المدينة الكبيرة .

حتى الغذاء لا طعم له ولا رائحة . أشياء باهتة موضوعة فى أطباق . بين الحين والحين تسقط فيها حشرة من الحشرات الطائرة . الرجل يجلس أمامى على كنبة والحديث يروح ويجىء بيننا فى فتور . شىء ما فى الجو يوحى بالعزلة التامة ، بالاختناق ، كأن الجالسين أجساد بعثت من الماضى لتشهد ما يدور اليوم .

وبالأمس زرت الدكتورة « راو » فى منزلها لأودعها وأشكرها على اهتمامها المستمر والجهود التى بذلتها حتى أحصل على أكبر قدر من المعلومات والفائدة فى أثناء إقامتى فى نيودلهى . واستمتعت طوال الساعتين التى قضيتهما فى المسكن الصغير المكون من ثلاث حجر بالأحاديث الأسرية البسيطة ، والضحكات الشابة ترن فى استرسال معهود ، وجو البساطة الدافئة الخالية من العقد . .

وتجولت قليلا بين أجنحة الفندق . كانت الإدارة تجرى ترميمات وتجديدات واسعة . وحركة دائبة من العاملات والعمال يروحون ويجيئون حاملين أكياس الرمل ، والأسمنت ، والجبس ، وكميات من الطوب الأحمر . الأجسام الهزيلة تنوء تحت الأحمال . تراهم يستريحون عند الأدوار وتسمع أنفاسهم اللاهثة وهم يصعدون الدرجات ومعهم أطفالهم ، كتل صغيرة من اللحم العارى ، يجلسون على الأرض البلاط ، أو يصطحبون أمهاتهم عبر الأبهاء الطويلة المظلمة ، أو يقضون حاجتهم فى الأركان .

لم يبق سوى زيارة واحدة . خبير أمريكى فى علم الاجتماع قضى حتى الآن ثمانى سنوات فى الهند .

اتفقنا على أن نلتقى فى مكتبه الساعة الرابعة بعد الظهر ثم أنزل إلى « حدائق لودى » المجاورة .

كل شىء فى هذا الرجل حجمه ضخم . رأسه الكبير تعلوه هالة من الشعر الأشقر الكثيف وكأنها عرف الأسد واليدان الكبيرتان أصابعهما طويلة ، سميكة ، قوية . والقامة طويلة ، عريضة ترتفع إلى أعلى فوق ساقين كجذوع الشجر . والكتفان والذراعان ممتلئة تحس بالعضلات المتضخمة تحت القميص ، وترى العنق يبرز منه كقاعدة التمثال المصبوبة .

العينان الزرقاوان ينظران إليك فى برود هادئ . كان من المفروض أن نتحدث عن تنظيم الأسرة ، ولكن الحديث اندفع منذ البداية إلى السياسة . كنت أحس كأن شيئاً ما يضطرم فى داخله ، شيئاً ما أصبح شغله الشاغل بحيث لا يستطيع أن ينفصل عنه أو ينساه . فتركته يتكلم مكتفياً بأن أوجه إليه سؤالا بين الحين والحين حتى لا يتوقف الحديث . كان فى حالة غير عادية !

« الهند خطت خطوات كبيرة فى السنين الأخيرة . ومع ذلك لم أعد متفائلا كما كنت عندما جئت إلى هنا منذ ثمانى سنوات . أصبح هناك جو يخيم على البلاد لا أدرك كنهه ، نوع من القومية المبالغ فيها تؤدى إلى رغبة متزايدة فى الاعتماد على النفس ، فى الاستغناء عن المساعدات التى يستطيع أن يقدمها الغرب . وأنا أخشى هذه الروح . إنها ستؤدى فى رأيى إلى تدهور فى الموقف ، وإلى إخفاق الجهود التى تبذل للبناء وربما إلى الفوضى » .

« أليست هناك أسباب لذلك ؟ »

« طبعاً هناك أسباب . بعض الأخطاء فى سياستنا وموقفنا فى الحرب الأخيرة . ولكن من الذى لا يخطئ فى مواجهة تعقيدات عالم اليوم ؟ وهل يمكن أن ننسى أن لأمريكا ارتباطات متشابكة مع دول

كثيرة لا بد أن تؤثر على سياستها ؟ وهل كان من الممكن أن تتخلى عن باكستان ؟ ».

« ولكن هذه الرغبة فى الاستقلال . هذا الإدراك المتزايد فى البلاد النامية بأن جهد الشعب نفسه وسعيه الدائب لتحقيق التطور الاجتماعى وقدر أكبر من الرفاهية الموزعة بعدالة على مختلف الفئات والطبقات ، ما الذى يزعج فى ذلك ؟ » .

« هذا ليس ما يزعجنى وإنما يزعجنى أن يتم هذا فى عزلة ، بل ربما فى عداء مع الغرب » .

« ولكن هل تعتقد أن العداء نابع من البلاد النامية . ما هى المساعدات الحقيقية التى يقدمها الغرب لشعوب التى تخلفت بسبب سياسة الغرب الاستعمارية ؟ » .

حملق فى وجهى بنظرة باردة . ثم قال :

« ينبغى أن نطوى صفحة الماضى ، ونفتح صفحة جديدة . إن العالم يتغير ، والسياسة تتغير معه » .

« هل تغيرت إلى درجة الاستعداد لمساعدة الهند مثلا فى أن تصبح دولة صناعية عصرية تطعم الجوعى وتوفر لهم العدالة الاجتماعية التى أصبحت حلم كل إنسان فى عالم اليوم . ألن يكون هذا على حساب الأموال التى تستنزف لخدمة الدوائر المالية الحاكمة فى الغرب ؟ هل يمكن أن تتغير السياسة إذا لم تتغير المصالح ؟ .

« ولماذا تفكر كل البلاد فى التصنيع العصرى . أليس هناك تقسيم للعمل ؟ هذه سنة الحياة . لكل منا وظيفة وعمل . قانون الطبيعة الذى لا يتبدل » .

أحسست بالحديث بيننا يتعثر كأن حاجزاً ما يحول دون التفاهم . تناولت آخر رشفة قهوة فى الفنجان وقمت ألقى نظرة على المكتبة ترتفع

رفوفها المتتالية حتى السقف . دق الجرس الصغير المثبت فى مكتبه : دخلت فتاة هندية فسألنا :

« كنت قد أعددت بعض الكتب للدكتور . أين هى ؟ »

أشارت إلى مجموعة من الكتب على مكتبه . قدمها لى وهو يقول :

« بعض الكتب عن طريقة إدخال المشكلة السكانية وتنظيم الأسرة فى مراحل التعليم المختلفة . دراسات أجراها الأستاذ " متنا " فى المعهد العالى للمهن التعليمية ربما وجدت فيها بعض الفائدة » .

« متشكر . ستكون مفيدة لا شك . فهذه إحدى الوسائل التى يستطيع بها التعليم إعداد الأجيال القادمة بفهم أعمق لهذه المشكلة الحيوية ، وبضرورة تغيير أنماط الحياة . وبالمناسبة نسيت أن أسألك عن الدراسات التى تقوم بها الآن » .

« أنا أجرى دراسة اجتماعية عن بعض العادات والنظم المتعلقة بالزواج فى الهند . وقد سافرت إلى عديد من القلايات وأقمت فيها فترات طويلة . ولكننى أعمل الآن فى المنطقة المحيطة بدلهى» . وقد اكتشفت أنه ، على بعد ما لا يزيد عن ٤٠ كيلومتراً من العاصمة ، توجد عادات غريبة موروثة عن الماضى . فمثلا فى كثير من الأسر ما زالت الزوجة تعاشر ، لا الزوج فقط ، وإنما إخوته أيضاً معاشرة جنسية منتظمة ! وهذا يعلم الجميع بدون إفصاح علنى عن هذه العلاقة المتعددة الجوانب . ولكن عند ما يكون أحدهم فى حجرتها يترك صندله أو حذاءه فى الخارج حتى يعلم الآخرون . وفى قديم الزمان كان يترك سيفه أو رمحه معلقاً على الجدار خارج الباب حتى لا يدخل أحد عليهما ..

الحدائق فى الخارج يخيم عليها هدوء اليوم الذى يقترب من نهايته . شباب وفتيات يسيرون متشابكى الأيدى يتحدثون فى همس كأنهم يريدون الحفاظ على سحر اللحظات الجميلة . مساحات خضراء ،

وتماثيل ، وأحواض من الزهور وأشجار ، ممرات مرصوصة بالزلط والحجارة الملونة. مساحات تبدو لانهائية ، ترتفع وتنخفض في تلال ووديان صغيرة . وأسراب الطيور الملونة تنتقل من شجرة إلى شجرة تشدو بأصوات كالموسيقى . والسارى المدن فوق الأجسام الرشيقة السمراء يتقرب إلى زمن مضى : زمن الشعر ، والتأمل بعيداً عن ضجيج المدن والآلات .

غريبة المدن هذه . فيها جمال الشعر وعمق التفكير المتأمل وفيها كل قبح الإنسان البائس المطحون .